

قمر

رواية

© وكالة سفنكس  
سلسلة إبداعات عربية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠١٤

رقم الإيداع ٣٦٢٥ / ٢٠١٤

ISBN: 978 - 977 - 6299 - 98 - 12



وكالة سفنكس للترجمة والنشر والتوزيع

٧ شارع معروف - الدور السابع

وسط البلد - القاهرة

ت/ف: ٢٥٧٩٢٨٦٥

موبايل: ٠١٠٦٨٨٠١٥٤٥

[www.sphinxagency.com](http://www.sphinxagency.com)

[info@sphinxagency.com](mailto:info@sphinxagency.com)

سلسلة إبداعات عربية

رواية قمر

تأليف/ مريم البنا

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

Sphinx Agency © 2014

مريم البنا

قمر

رواية



وكالة سفنكس

# إهداء

إلى أبي الأستاذ الدكتور.. محمد كامل ياقوت

إلى أمي السيدة.. فاطمة علام

ليتني كنت التراب الذي تتوسدانه..

# إهداء

إلى من شاركوني قصة قمر

إلى العائلة الملائكية الجميلة الرائعة التي تعرفت  
عليها بسبب قمر.

إلى الدكتور العلامة الإنسان / بيرج يعقوب

إلى زوجي الشاعر / بهاء چاهين

إلى ابني الفنان / عمر چاهين



## (١)

لا شيء أسوأ من أن تنام وأنت تعلم أنك ستستيقظ في رعب على صرخات من تحب. فطوال الليل يحدث الاغتصاب الجماعي، ويأتي الصباح فأجد قمر في أسوأ حالاتها بين الإنهاك والألم. وأصبح هذا يحدث كل يوم، كل صباح. أو أنها تصرخ بسبب ما تفعله أمها (بلبل) بها، حيث إنها سرقت أولادها وأخذت مكانها، وكلما اقتربت قمر تهجم عليها وتعضها وتخربشها في وجهها حتى بات كله ندوب وجروح حمراء.

## (٢)

أعرف أنني أخطأت.. منذ اللحظة الأولى. كنت أرقب قمر وأختها وعمرهما حوالي شهران من النافذة، هما وأمهما: تلك الكلبة البنية التي بدأت علاقتي بها منذ أن رأيتها في الطريق، وأطعمتها فصارت منذ ذلك اليوم تعرفني وتأتي تتمسح بي فأربت عليها.. لم تكن علاقتي بها أكثر من ذلك. أراها أحيانا ولا أراها أحيانا أخرى، كما رأيت ابنها الذي كان يسير معها طوال الوقت ولم يكونا يفترقان. وقد حاولت أن أجمد علاقتي بهما حتى لا أرتبط بهما عاطفياً، ولكن..

ذات صباح رأيت ابنها راقداً وسط الساحة التي خلف منزلنا، وظل هكذا فترة ثم قام يترنح فاعتقدت أنه جائع. نزلت على الفور وقدمت له طعاماً فلم يأكله. وفي اليوم التالي رأيت راقداً مرة أخرى ولكن تلك كانت رقدته الأخيرة.

بعد عدة أشهر أنجبت ببلبل اثنين.. لونهما بيج فاتح على ذهبي. حاولت كثيراً أن يقتصر الأمر على رؤيتي لهما من النافذة، إلى أن جاء يوم سمعت فيه صراخاً وعويلاً فنظرت من النافذة: رأيت أحدهما يزحف تحت إحدى السيارات وذيله يقطر دماً، والسيارة التي قطعت ذيله مازال صاحبها يحاول أن يركن غير عابئ بصرخات الكلب الصغير، فأردت أن آخذ الكلب الجريح إلى دكتور «بيرج يعقوب»، الطبيب البيطري المعروف - الذي يعالج كلبتي الجريفون «لى لى» التي في المنزل - لكنني لم أفعل، لأن ذلك الكلب هو وأخوه (أو أخته) لا يعرفاني، وربما يعضانني إن فعلت، فأقعدني الخوف عن نجدتهما.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها صرخاتهما، ففي أحد الأيام سمعت صراخهما عبر النافذة. كان ثلاثة «أشرار» صغار يقذفونهما بالطوب بدون أي سبب، فاختبأ الكلبان تحت إحدى السيارات لكنهم ظلوا خلفهما وناموا على الأرض وأخذوا يقذفونهما بكل الطوب الذي تمتلئ به أيديهم وجيوبهم، والكلاب تصرخ ولا تجد مفراً تهرب إليه. وأيضاً كانت أمهما «بلبل» تضربهما كثيراً وتنبح فيهما وتهشهما، الأمر الذي جعل مقاومتي تنهار. فأخذت طعاماً ونزلت واقتربت منهما، فجرى الاثنان واختبأ تحت إحدى السيارات. وقفت قليلاً في انتظار أن يقترب أحدهما من الطعام فلم يفعل، فصعدت إلى الشقة وأنا في حالة غضب وضيق. وفي اليوم التالي نزلت وأخذت لهما طعاماً فاقترب أحدهما، ولاحظت أنه يرتعش، ليس من البرد لكن ربما من مرض

أصابه. ورأيت جسده يعلو ويهبط في تشنج عدة مرات في الدقيقة الواحدة، فأشفقت عليه واقتربت منه وقربت له الطعام فأخذ يأكل، وأخذت أربت على ظهره قليلاً ثم تركته يذهب إلى أخته بجوار إحدى السيارات.. تلك كانت «قمر».. ولم أكن قد أسميتها بعد، لا هي ولا أخاها، فأنا لم أكن أحبها وقتها، لأنها كانت دائماً تخاف الاقتراب مني.

### (٣)

وفي أحد الأيام أخبرني بواب العمارة بأن الكلب الأبيض الصغير مات. فسألته إن كان السليم أم الذي كان يرتعش؟ فقال: «الذي كان يرتعش». فحزنت عليه كثيراً، لأنه كان يأتي إلى ويتركني أربت عليه ويمرور الوقت توطدت علاقتي به وأصبحت أمه.

لا أدري ما الذي جعلني في اليوم التالي أحضر طعاماً وأذهب إلى الكلبة الأخرى. التي فيما بعد سأسميها عشقاً «قمر»، لكنها ابتعدت، وانتظرت حتى ابتعدت أنا ثم أخذت تأكل. اقتربت منها وأخذت أربت على ظهرها، وللمرة الأولى تتركني أفعل ذلك. ومنذ ذلك الحين صرت أحضر لها ولأمها «بلبل» الطعام كل يوم.

## (٤)

وذات صباح رأيتها تقف على الرصيف كقمر جميل في السماء فأسميتها «قمر»، وسرعان ما أصبحت مصدر سعادة كبيرة لى. كلما رأتهي قادمة إليها تهرع ناحيتي وكانت تبدو كغزالة بيضاء أو كباليرينا شعرها ذهبي تمشى على أطراف أصابعها. وما إن تقترب من الطعام الذى أضعه لها حتى تزوم أمها «بلبل» وتكشر عن أنيابها، ثم تهجم على قمر، فتهرب قمر وتأكل أمها كل الطعام وحدها.

لم أدر ماذا أفعل؟ جربت أن أفرغ زجاجة المياه التي أحملها معي - لأضع لهما الماء ليشربا - على رأس بلبل، فكانت تبتعد قليلاً، وأهرع أنا إلى قمر الجائبة وأحاول أن أوقفها لتأكل، لكنها لا تأكل وأرى آثار العنف والدم عليها بسبب ما تفعله أمها فيها، فأصاب بهم وضيق، وأعود كما كنت لا أدري ماذا أفعل.

في تلك الفترة أصبحت أكره بلبل، وأخذت أفكر فيما يمكن عمله لكي تأكل قمر في أمان وسلام. فكرت في أن أضع لقمر الطعام في المقعد الخلفي لسيارتي، وفعلاً حاولت أن أحملها إليه، لكنني لم أستطع حملها. وأخيراً اهتديت إلى الحل: أن أضع لهما الطعام على ورقتين منفصلتين وبعيدتين عن بعضهما، وأظل واقفة بجوار قمر وفي يدي زجاجة مياه تحسباً لأى هجوم من بلبل. كنت لا أتركها حتى تأكل وتشرب وتشبع. وعلى الرغم من شراسة «بلبل»، أسميتها «بلبل»، وأنا أعلم أنها أبعد ما تكون عن البلابل، بل هي أقرب إلى الغربان أو

الحدآت، لكنني كنت أشفق عليها، لأنها كانت قد أنجبت  
كلبتين قبل قمر وأختها وسرقهما الزبال وعمرهما أيام،  
وظلت هي تبحث عنهما وهي تصدر أصواتاً أشبه بالبكاء،  
لم تجدهما أبداً، وكنت أشفق عليها أيضاً لأنها كبرت في السن  
وفقدت الكثير من وزنها، وفي لحظة حنان أسميتها «بلبل».

### (٥)

في أحد الأيام، سمعت صوت بكاء جرو صغير، فنزلت إلى  
المكان الذي يصدر عنه الصوت، فلم أر شيئاً. واستمر هذا  
البكاء المتصل أحياناً والمنتقطع أحياناً أخرى يومين، وأخيراً  
عرفت مصدره: كان جرواً صغيراً لونه رمادي فاتح لم أعرف  
من أين جاء ولا من أمه؟ وضعت له علبة صغيرة فيها لبن  
بسيريلاك بالقمح، فأخذ يشرب في نهم ثم جرى ناحية قمر.  
كنت أراه دائماً يسير معها ويجرى خلفها، ويحاول الصعود  
على ظهرها، وإذا نامت على أحد جنبها ينام هو على بطنها  
ويلعب معها في شقاوة بريئة، فأعجبت بخفة ظله وظرفه،  
فأسميته «ظريف» وأصبح ظريف ابني الثالث بعد «قمر»  
و«بلبل».

(٦)

أحببت «ظريف» هذا. فكلما نزلت لتقديم الطعام لهم أراه يأتي إلى مع «قمر» وهو يتدحرج بين يديها وأحياناً بين رجليها. أما «بلبل»، فكانت تمشي وحدها في جلال وشموخ. وكان «ظريف» يخاف منها، فهي دائماً تنهره، وأحياناً تدفعه بقوة فيقع ويصرخ ثم يقوم ويجرى بعيداً.

بعد أيام لم يعد «ظريف» يشرب اللبن والسيريلاك، بل كان يتجه ناحية الأكل الذي أضعه «لقمر»، فهو لا يجروء أن يقترب من طعام بلبل. وكانت قمر تصرخ فيه هي الأخرى لو اقترب من طعامها، لكن برفق. وكانت كلما وضعت في فمها قطعة عظم كبيرة تأخذها بعيداً لتأكلها على مهل، فكان ظريف يتسلل إلى «نصيها» ويخطف بعضاً منه ويجرى، ثم يحاول أن يعيد الكرة فيفلح أحياناً ويفشل في معظم الأحيان.

بعد ذلك أصبحت أعد «لظريف» طعامه وحده وكأنه كبير.. نفس الطعام الذي يسميه الجزارون «تناضيف وعكش»، وهو قطع عظام أطلب من الجزار أن يقطعها قطعاً صغيرة مع بعض القراقيش. كنت أسلقها لهم مع بصل وحبهان ومستكة وورق لورا وجزر وكوسة وأحياناً بسلة، وبعد أن ينضج هذا الطعام جيداً أقطع فيه بعض أرغفة الخبز البلدي أو أضع فيه أرزاً.

## (٧)

كان «ظريف» يأكل كثيراً، وكان يبدو ظريفاً وهو يأكل، فهو يلتهم طعامه بسرعة وكان شخصاً ما سيخطفه منه.

كبر ظريف بسرعة وخنمت أن عمره ثلاثة أشهر، أي أنه بلغ العمر الذى يتم فيه تطعيم الكلاب ضد الأمراض والسعار، فاتصلت بعم صابر ممرض دكتور «بيرج» ليحضر إلينا ومعه التطعيم، لأنني لا أستطيع أن آخذهم هم الثلاثة إلى العيادة، خصوصاً مع عدم وجود طوق وسلسلة لكل واحد منهم. كانت الخطة تقتضى أن آخذهم إلى «منور» عمارتنا، وهو أشبه بحجرة واسعة بلا سقف وله باب يقفل، وبالتالي هو أنسب مكان لتطعيمهم دون أن يجروا ويصعب الإمساك بهم، واتفقت مع عم صابر على الحضور صباح يوم الجمعة.

وجاء صباح يوم الجمعة فذهبت لإحضار عم صابر لأنه لا يعرف منزلي، ووجدته قد أحضر التطعيمات والسرنجات الثلاث ذات الإبر القصيرة الصغيرة، تلك التي يحضرها دكتور «بيرج» من الخارج حتى لا يتألم الحيوان أثناء حقنه. وأحضر أيضاً الكمامة وجونتي كبير سميك ومبطن حتى إذا ما حاول كلب عضه لا تصل أسنانه إلى يديه وبدأنا «ببلبل» لأنها كانت أكثر واحدة أخشاه، فهي تبدو مثل فتوة أو زعيمة عصابة، لكنني فوجئت بها تأتي بسلاسة وفي أدب جم بعد أن استدرجتها بطعام كنت أحمله في يدي، وما أن دخلت المنور حتى أجلستها. فاقترب منها عم صابر، فأخذت أربت عليها وهى واقفة في مكانها لا تتحرك ثم ألبسها هو الكمامة وفي

سهولة شديدة أعطاها الحقنة دون أن تنبح أو حتى تتحرك، ففرحت وتركتها تأكل الطعام واعتقدت أن باقي التطعيمات ستتم ببساطة. وبمنتهى التفاؤل أخذت أنادى على «قمر» و«ظريف» إلا أنهما ترددا في الاقتراب منى، وحتى بعد أن شما رائحة الطعام فما أن رأيا عم صابر حتى ابتعدا، وعندما اقتربت من «ظريف» اختبأ تحت إحدى السيارات فانحنيت بجوار أسفل السيارة وأخذت أناديه وأقرب منه الطعام، فأقترب قليلا وحاول أن يخطف شيئاً منه فأخذت في التراجع إلى الخلف لكي أستدرجه فيخرج من تحت السيارة وظللت هكذا إلى أن وضعت له الطعام بعيداً قليلاً عن السيارة فخرج وأسرعت بالإمساك به، وكنت قد ارتديت جونتي عم صابر تحسباً لأي عضة، فأخذ يصرخ ويصرخ بأعلى صوته، لكنني لم أهتم بذلك ثم أحكمت سيطرتي عليه وأعطاه عم صابر الحقنة وبعدها وضعت له الطعام فتركه وذهب بعيداً.

بقيت قمر.. وما أن اقترب منها عم صابر حتى ابتعدت وظللنا هكذا مدة ساعة تقريباً، فأيقنت أنه لا جدوى ولا إمكانية لتطعيمها، فشكرت عم صابر وأعطيته نقودا وقبل أن أرجعه مرة أخرى إلى العيادة ظهرت شابة أمورة تشبه بينولوبى كروز واقتربت منى وسألتني: لماذا يصرخ الكلب؟ فقلت لها لأنه كان يأخذ حقنة التطعيم، وسألتها إذا كانت بنت السيدة الطيبة التي رأيتها عدة مرات تقدم الطعام لبلبل وقمر وظريف فردت بالإيجاب ثم شكرتها على اهتمامها وانصرفت.

كانت تلك هي المحاولة الأولى لتطعيم «قمر». بعد ذلك ذهبت إلى دكتور بيرج واقتربت عليه أن أعطيها حبوباً منومة

لتأخذها وتنام ثم نعطئها الحقنة، فسأل عم صابر عن وزنها بالتقريب وبناء على إجابته أعطاني ثلاث حبات وطلب منى أن أسحقها جيداً ثم أخلطها بكبدة الفراخ والقوانص لأنهم يحبونها وستأكلها على الفور.

وفي اليوم المحدد جاء عم صابر فطلبت منه أن يظل جالساً في السيارة - التي ركنتها قريباً من المكان الذى فيه قمر لأن قمر إذا ما رأته فسوف تهرب بعيداً وتنعدم بذلك أي فرصة في تطعيمها فهي تخاف من البشر، ولأنها أيضاً سمعت صراخ ظريف في المرة السابقة ووفقاً لنظرية «بافلوف» فقد ارتبط في ذهنها عم صابر بالألم والصراخ. لكن هذه المرة حرصت ألا ترى عم صابر.

اقتربت قمر من الطعام الذى أعدته لها ووضعت فيه الأقراص المنومة وأكلته. وانتظرت حوالى ساعة لكي تنام فيعطئها عم صابر الحقنة لكنها لم تنم. وأثناء ذلك كنت أتحدث بالموبايل مع عم صابر - على الرغم من أن المسافة بيني وبينه حوالى عشرة أمتار - لكي أعطئه تقريراً عن حالتها وأصبره، وطلبت منه ألا يقترب منها تحت أي ظرف من الظروف. لكن الساعة مرت وقمر مستيقظة ففقدت الأمل في إعطائها التطعيم. إلا أنه اتصل بي في الموبايل وأخبرني أن معه طوقاً وطلب منى أن أضعه حول عنقها وأمسكها جيداً لكي يعطئها الحقنة لأنها غالباً ما تكون «مدروخة» فاقتربت منها في حذر ووضعت الطوق حول عنقها، لكن ما أن فعلت ذلك حتى انتفضت وتراجعت إلى الخلف ثم جرت بعيداً وهى تصرخ وسرعان ما اختفت عن الأنظار. مر وقت طويل ولم

تظهر فانصرف عم صابر وصعدت أنا للمنزل في قمة الإحباط واليأس. وبعد حوالي ثلاث ساعات رأيته في الحديقة المجاورة فنزلت إليها وكانت «مدروخة» فاقتربت منها وحاولت خلع الطوق من رقبتها فاستسلمت لي وسرعان ما راحت في سبات عميق!

## (٨)

في صباح أحد الأيام وأنا أنظر من النافذة رأيت ثلاثة كلاب بيج ميتة بجوار صندوق القمامة. فانقبض قلبي ونزلت على الفور، بحثت فيهم عن قمر، كانت كل الكلاب الميتة بذيل، أما قمر فولدت بلا ذيل، فحمدت الله أنها لم تمت. وفجأة رأيت «ظريف» ممدداً بينهم على جنبه الأيسر، وساقاه مفتوحتان فصدمت وبكيت، ثم جاء فتى مراهق ونظر إليهم وقال: أكيد تسمموا. وساعتها تذكرت ما قالت له لي مدام جميلة - التي تطعمهم أيضا - إن الكلاب أثناء الليل ظلت تصرخ بشكل غير طبيعي وتصدر أصواتاً مؤلمة، وبعد أن هدأت أصواتهم اقتربت أم أحدهم منهم وأخذت تنتظر منه أن يفيق لكنه لم يفعل، ثم أخذت تعوى وظلت مقعبة بجواره إلى أن جاء الصباح ففرق بينهما، عندما ألقى بهم أحد البوابين بجوار صندوق القمامة.

(٩)

انشغلت بموضوع «ظريف» وموته عن قمر التي أصبحت حاملاً الآن، ويبدو أنها ستلد قريباً، فقد أخذت تسير ببطء في الساحة ولا تستطيع الدخول تحت السيارات المنخفضة، اهتمت بطعامها وشرابها بعيداً عن بلبل الشرسة.

(١٠)

اليوم لم تظهر قمر.. انتظرت الساعة والدقيقة والثانية لكنها لم تظهر، فأدركت أنها ولدت وأخذت أبحث عنها بين الشجيرات التي تحيط بالجراج، وبالفعل رأيتها وهي ترضع أولادها ففرحت واقتربت منها وأخذت أمسح بيدي على رأسها وهي ترضع أولادها، ثم سعدت بسرعة للمنزل لكي أحضر لها طعاماً، وما أن قدمته لها حتى انقضت بلبل وزامت على قمر وأخذت تأكل طعامها تاركة الطعام الذي كنت قدمته لها. ترددت في أن أمد يدي لأخذ طعام قمر منها خوفاً من أن تعضني، لكن ربنا ستر وأخذت الطعام الذي لم يكذبني منه شيء، أكلته قمر، وانصرفت وأنا أردد أدعية كل يوم: أن يحفظ الله قمر وأولادها من شر بلبل وشر «أولاد الحلال»!!

ازداد كرهى لبلبل، فهى تأخذ مكان قمر وترقد بجوار الجراء وتمنع قمر من إرضاعهم، وتحاول أن ترضعهم بالقوة من أئدائها العجوز الخاوية، وإذا اقتربت قمر من أولادها فإنها تجثم فوقها وتخمش وجهها وتعضها وتبج فيها. ومرة حاولت أن أبعد الجراء عن بلبل لكنها أسرع وتجمت فوق قمر.

كما صرت أكره المكان الذى تنام فيه قمر وأولادها، فهو ملئ بالطوب والزلط وأعداد هائلة من النمل.

رأيتك ترتعدين من البرد يا قمر والمطر يهطل عليكم فصعدت بسرعة إلى المنزل وأحضرت ملاءة كبيرة ووضعتها فوقك أنت وجرائك. لكن بعد وقت قصير اضطررت إلى إبعادها عنكم لأنني سمعت بكاء أحد الصغار ولم أستطع تحديد مكانه، فنظرت: رأيتة وقد التفت الملاءة حوله وكاد يختنق.

كنت أتخيل كثيراً أنني أحضرت قمر وأولادها وحتى بلبل ليعيشوا معنا في المنزل وأنى أحضرت لهم سجادة جديدة ناعمة فرشتها بجوار مدفأة تقيهم شر البرد. لكنها كلها أحلام يقظة لن تتحقق. ومن شدة حبي لقمر وأولادها لم أعد أرتدى ملابس ثقيلة، على الرغم من أنني أرتعش من البرد، تضامناً مع قمر وأولادها.

انتهيت من طهى طعام قمر وبلبل في الحادية عشرة صباحاً وأخذت زجاجة المياه والطبق البلاستيك ونزلت. كانت قمر تجلس بجوار إحدى السيارات فناديت عليها. أتت مهرولة كما كانت تفعل دائماً قبل الولادة. عادت كما كانت، باستثناء أن أئدءها كبرت وصارت تترجرج. وللمرة الأولى أقترب من أولادها: اثنان منهم لونهما أبيض وعليهما بقع صغيرة سوداء وأخران لونهما أبيض فقط، أما أثيري فهو الذى لونه بيج، ربما لأنه نفس لون قمر، وربما لأنه يظهر كثيراً. ولاحظت أيضاً أن عيونهم كلها مغمضة، وسمعتهم يصرخون لأنك تركتهم يا قمر لتحضري إلى، وجاءت معك بلبل وتناولتما الطعام.. وأخذت أقول لقمر اذهب ونامي بين أولادك، لكنها كانت مشغولة، فكل دقيقة تأخذ عظمة، تحملها في فمها وتذهب بها إلى حيث تحفر الأرض وتضعها ثم تهيل عليها التراب. أما بلبل فقد انتهت من طعامها بسرعة وذهبت وجلست بجوار الجراء. وقمر تحوم حولهم ولا تجرؤ على الاقتراب. وبعد عدة دورات تجاسرت قمر وجلست بجوارهم وانتظرت قليلا تريد أن ترضعهم، لكنها لم تفعل لرعبها من بلبل. فاقتربت منها وأخذت أهدهدها. وللمرة الأولى أرى الجروح التي في وجهها.. جرح كبير على أنفك وثلاثة بين عينيك، فتمنيت أن تموت بلبل، بسم أضعه لها أو أحضر شخصا ما ليقتلها ونتخلص من شرها.

في صباح أحد الأيام سمعت قمر تنبح بشدة. أخاف عند سماع نباحها، لأنه لم يتم تطعيمها وأرتعب من فكرة أن يعضها كلب مسعور فتصبح مسعورة هي الأخرى. نظرت من النافذة فرأيتها تقف على مقربة من أولادها وتنبح. نظرت إلى الجانب الآخر، حيث يوجد أولادها، فرأيت رجلاً واقفاً على سلم طويل يقلم أوراق الأشجار فنزلت بسرعة وطلبت منه أن ينتبه جيداً حتى لا تسقط الفروع والأغصان على تلك الجراء. وظللت واقفة بجواره فلم يسقط عليهم سوى ورقات قليلة. وسرعان ما أنهى الشجرة التي فوقهم وانتقل إلى الشجرة المجاورة وعادت قمر إلى أولادها، لكنني رأيتهم قد أصبحوا في العراء، فالشجر الذي كان يحميها هي وأولادها من الأمطار -وكانت أياماً مطيرة - ومن نظرات الفضوليين اختفى. وكأني كنت في حاجة للمزيد من مشكلاتك يا قمر.

أصبحت فكرة الإمساك بشمسية لحمايتهم من الأمطار هي الحل الوحيد الآن. وبالفعل هطلت الأمطار، فأسعدتني إلى المنزل وأحضرت الشمسية وفتحتها وظللت ممسكة بها لحمايتهم من المطر إلى أن توقف. ثم أخذت أقرب من الجراء في شوق لهم فرأيت كلبين ميتين، انقبض قلبي وأخذتهما بعيداً حيث قمت بدفنهما بالقرب من إحدى الأشجار. ثم عدت إلى قمر ورأيتها هي وباقي الجراء ينامون في أحد أحواض الزرع، أي في منطقة منخفضة عن باقي الأرض، وبالتالي فهي أسرع في الامتلاء بالماء ومن الممكن أن تغرق الجراء أثناء ري الأحواض الذي يقوم به البواب كل عدة أيام.. سألت نفسي:

ماذا أفعل؟ لو كنت أستطيع بناء كوخ خشبي لهم ! لكنى أعلم أن السكان سيرفضون ذلك حتى ولو لم تكن لديهم أسباب وجيهة، فمعظم المصريين والمسلمين يكرهون الكلاب لأنهم يتذكرون نجاستها، ويتناسون أن رجلاً دخل الجنة لأنه سقى كلباً في خفه، وأن إحدى بغايا بنى إسرائيل فعلت نفس الشيء، فغفر الله لها وأدخلها الجنة .

### (١٤)

أصبح موضوع الطقس يقلقني، خصوصاً هطول الأمطار، وأخيراً هداني الله إلى فكرة أن أفتح كيس قمامة لونه لبنى فاتح وأجعله شمسية أشبكها في أغصان الأشجار التي تنام تحتها قمر وبلبل والجراء. وبالفعل قمت بفتح ثلاثة أكياس قمامة ورشقتها في أغصان الشجر الصغير ثم الشجرة الكبيرة فأصبحت شمسية مستطيلة.

وأثناء وقوفي بجوارهم أحسست بشيء صغير يحتك ببنتلوني، فنظرت إلى أسفل فرأيت أحد الجراء وهو البيج الغامق فنزلت على ركبتي وأخذت أربت عليه.. كان ينظر إليّ، ونظرت إلى وجهه فرأيت براءة الدنيا في عينيه، ثم أخذ يمشى حتى دخل تحت إحدى السيارات، في هذه اللحظة تملكني خوف كبير، لأن الجراء أصبحت تمشى وتتحرك ومن الممكن أن تدهسها أي سيارة تدخل أو تخرج في هذا المكان - الذي هو أصلاً ساحة لركن السيارات - دون أن يرى سائقها تلك

المخلوقات الصغيرة. وتخيلت لو أن أحد هذه الجراء «مزقته»  
سيارة، فماذا سيكون حال قمر.. وحالي؟

## (١٥)

يوماً بعد يوم بدأ أطفال قمر يكبرون.. «مستكة».. هو  
الاسم الذى أطلقته على تلك الجميلة التي كانت تتشمم  
بنظروني، لونها بنى فاتح ويدها وقدمها وفوق أنفها إلى  
منتصف رأسها أبيض، لكن وجهها لا يمكن أن يكون إلا وجه  
ذكر، بعكس قمر الناعمة الرقيقة. وأحسست أن «مستكة»  
تحبني هي الأخرى، فكلما دخلت إلى الجراج الذى يعيشون  
فيه - وهو ليس جراجاً بالمعنى المتعارف عليه، بل هو مكان  
كبير خلف عمارتنا محاط بأسلاك قصيرة وأشجار قصيرة وبلا  
سقف - أشعر بالخوف من أن أذهب إليهم فأجدهم قد  
نقصوا واحداً. زوجي أطلق على الكلبة البيضاء اسم «سكر»  
أما «براون» فهو الكلب الأبيض الذى حول عينيه هالتان  
سوداوان وثلاث بقع سوداء على ظهره.

## (١٦)

بالأمس رأيت ستة فلاحين يقفون أمام الجراج. كانت مستكة وسكر تلعبان أمام الباب، وأنحنى الفلاحون عليهما، ثم اقترب منهما أحدهم ومد يده لأخذ براون. فصرخت من النافذة بأعلى صوتي: سيبوا الكلاب! لم يسمعي في المرة الأولى لكنه سمع في المرة الثانية وابتعدوا.

في أحد الأيام رأيت صبيا يمسك بأحد الكلاب الصغيرة من قفاه ويرفعه إلى أعلى والكلب يصرخ، زعقت فيه فقال: أنا أطعمهم يا طنط، لم أستطع أن أرى جيداً مصداق ما يقول لأن سواد الليل غطى كل شيء لكنني أحسست أنه يكذب. فقد كان يحمل شنطة خلف ظهره، أحسست أنه يريد سرقة ذلك الكلب ووضعه في الشنطة فصرخت مرة أخرى وطلبت منه أن يترك الكلب فتركه وانصرف.

## (١٧)

عند عودتي إلى المنزل أخبرني البواب أن أحد أولاد قمر دهسته سيارة جارة من الجيران، وأنها أخذته إلى الصيدلية وأخذ العلاج اللازم، فذهبت بسرعة إلى الجراج، فخرج من تحت إحدى السيارات الكلبان الأبيض وذو البقع السوداء، فرحت معتقدة أن أحدهما هو الذي كادت السيارة أن تدهسه وأنه في حالة جيدة، ثم انتظرت خروج «مستكة» فلم تخرج، فأدركت أنها هي التي خبطتها السيارة وأنها تتألم ولا

تستطيع الخروج. جلست على الأرض ونظرت أسفل السيارات فلم أر مستكة، ثم رن الموبايل فقممت بالرد، جاء صوت جارتى الطيبة مدام جميلة التي رأنتني من الشرفة، وأخبرتني أنها أخذت مستكة إلى مستشفى الشعب، وهناك أجروا لها أشعة فاتضح أن قدميها الأماميتين كُسرتا، ولكن لأنها صغيرة فسوف تشفى بسرعة. ذهبت إليها لأرى مستكة فأحضرتها من داخل الشقة وفرحت بها جدا، لكنني لاحظت أن يديها متورمتين وحجمهما ثلاثة أضعاف قدميها الخلفيتين، فانزعجت، لكن مدام جميلة طمأنتني وأخبرتني أن الطبيب قال لها: يجب أن تبقئها عندك في الشقة حتى لا تتلوث جروح يديها .

## (١٨)

بعد عدة أيام كنت أرقب أحفادي الكلاب من النافذة، فإذا بي أرى (حنان) ابنة مدام (جميلة) تأتي إلى الجراج وبجوارها مستكة تمشى على قدميها، وفرحت جدا وحمدت الله على شفائها وأخذت أدعو لمدام جميلة وأسرتها الجميلة على حسن رعايتهم لمستكة واهتمامهم بها، ثم رأيت «قمر» و«بلبل» تهرعان نحو مستكة التي سرعان ما اندمجت في اللعب مع «براون» و«سكر» في براءة وشقاوة وجمال.

بعد عودتي من زيارة مريض بالمستشفى - تلك الزيارات والواجبات الاجتماعية التي كادت أن تنعدم بسبب خوفي الشديد من ترك الكلاب وحدهم - ذهبت لإطعام أولادي فلم أر براون. قلت لنفسي إنه قد يكون نائماً تحت إحدى السيارات، فلم أجده تحت أي منها، ونفس الشيء لمستكة وسكر. توقفت قمر عن الأكل وبدأت حزينة. في المصعد قابلت جارنا فقال إنه رأى طفلاً في حوالى العاشرة من عمره يلعب مع مستكة وبراون وسكر وأخبره أنه سيأخذ براون ليربيه في منزله. طلبت من جاري أن يصف لي منزل هذا الطفل فقال لي: سأنزل معك ونزل معنا ابنه أيضاً وذهبنا إلى المشروع السكنى القائم أمام منزلنا وأخذنا نبحت في الحدائق الصغيرة الموجودة بين العمارات - وهى ليست حدائق بالمعنى التقليدي، بل هي أشباح حدائق، فالشجر رمادي مهممل وفروعه ميتة مهجورة - فلم نجد شيئاً، وأخذنا نسأل الشباب الواقف عند ناصية إحدى العمارات عن طفل معه كلب، فكانوا يجيبون بالنفي، إلى أن قال لنا شابان إنهما شاهدا طفلاً معه كلب في العمارة المجاورة - أشارا إليها - فذهبنا لتلك العمارة، وطرقت الباب، فظهر لنا رجل في حوالى الستين من عمره وتحدث إلينا في تهذيب شديد قائلاً إن أولاده كبار وأنه لا يعرف شيئاً عن موضوع الكلاب. وظللنا نبحت حوالى ساعة إلى أن رأينا مكوجى المنطقة فسألناه، فنادى على بواب عمارة مجاورة أخبرنا أن هناك طفلاً اسمه محمد يسكن في الطابق السابع وأن معه كلباً صغيراً، ثم تحدث البواب عبر

«الإنتركوم» فسمعت صوت طفل صغير سأله البواب: «إنت لسه عندك الكلب يا محمد؟» فقال الطفل: أيوه، فسأله البواب مرة أخرى: «إنت عايز تخليه عندك؟» فرد محمد قائلاً: «مش عارف». ثم طلبت منه أن أتحدث إلى والدته، سألتها إذا كانت ستحتفظ بالكلب فقالت: «لو محمد عايز يخليه يخليه»، ثم رجتني أن أصعد للتحدث معها.

بدت لطيفة وودودة. أخبرتها أن أم الكلب في حالة حزينة جداً بعد أن فقدت أولادها كلهم، ولكن إذا كان محمد سيتحمل المسؤولية ويعتنى بالكلب، فأنا أرحب بذلك، لأن الكلب سيعيش في بيت فيه حنان وأمان، وهذا بالطبع أفضل له من الشارع، والأمر الوحيد الذي يجعلني أريده هو أن أعيده إلى أمه. وفجأة ظهر براون ففرح قلبي كثيراً وهرعت إليه وحضنته وقبلته وقلت لأم محمد: أنا هسيبه عندكم يوم كمان لتقررروا القرار النهائي ثم أتصل بكم. وأخذت رقم تليفونهم.

## (٢٠)

أمضيت الليلة أحلم بأن يعدل محمد عن رأيه ويعيد براون إلى قمر، وما أن جاء الصباح حتى أسرعرت بفتح النافذة، فإذا بي أرى مستكة أمامي، لم أصدق عيني، ونزلت على الفور، فرأيت أمامي مدام جميلة، تقول لي إن ابنتها «حنان» سمعت مستكة تبكي في الحديقة المجاورة لمنزلهم في الساعة الرابعة

صباحاً، فنزلت وأخذتها إلى قمر، التي فرحت بها للغاية، وأخذت أقبل مستكة وأضمها إلى حضني وحمدت الله كثيراً ثم شكرت حنان بشدة.

وفي حوالي العاشرة والنصف مساء سمعت جرس الباب، فقامت وفتحته، فإذا بي أرى براون. وقال محمد - الذي كان يحمله - أن والدته بعد أن جمعت الغسيل النظيف ووضعتة على السرير أخذ براون يلعب به وبعثره في أرجاء الشقة، فتضايقت منه ولم تعد تريده.

طلبت منه أن ينتظرنى دقيقة حتى أرتدى ملابسى، ثم نزلت ووضعت براون وسط الجراج، وعلى الفور خرجت قمر من تحت إحدى السيارات وقبلته في فمه وأخذت تتمسح به. ثم جاءت مستكة وأخذنا يلعبان وكأن شيئاً لم يكن.

## (٢١)

في الثامنة مساء نزلت لإطعام أولادى. وأثناء وجودى معهم جاءت جارتي مدام «جميلة» وابنتها «حنان» التي أخذت تحكى عن رجل عنفها بشدة عندما رآها تطعم الكلاب بحجة أنها تنبح على الرائحين والغادين، وأنها «نجسة». فردت عليه: «دي مخلوقات ربنا خلقها ودى أرواح جائعة ولم يحدث أنها آذت شخصاً أو هجمت على أحد، فلم يجبهها وتركها وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

علا صراخ مستكة، فقد تأملت من يديها الكسيرتين عندما هجم عليها «براون» لكى يلعب معها، فقالت مدام «جميلة» أنها

ستعطيها المضاد الحيوي والكالسيوم. ولاحظت أن «مستكة» لا تستطيع أن تضع يديها على الأرض، وأنها معظم الوقت ترفعهما ثم تعود فتخفضها، فقررت أن أخذها إلى دكتور «بيرج». وأثناء خروجي من السيارة، وبينما كنت أحملها تبولت على بنطلوني، لكنني لم أهتم. وعندما جاء دوري ودخلت إلى دكتور «بيرج» - الذي أحمل له معزة واحتراما كبيرين في نفسى - حكيت له ما حدث فأعطاها ثلاث حقن وكتب لها كالسيوم. ثم حكى لى عن كلب كان عندهم وهو طفل، يوم وفاته ظل يزحف حتى وصل إلى أبيه ووضع رأسه على ركلة أبيه ومات. وأخبرني أنه تأثر بشدة هو وأسرته لموت هذا الكلب. ثم أخذ يربت على مستكة ورفض أن يأخذ ثمن الحقنة وقال: دعيني أشارك معك في الخير الذي تفعلينه. فارتفع قدره في نظري وشكرته .

وبعد عودتي نزلت لإطعام صغاري فلم أجد أيا منهم، فذهبت إلى الحديقة المجاورة لمنزل مدام جميلة ورأيتها هناك تطعمهم، أثناء ذلك أخذت تحكى لى عن كلبتهم «لاسى» التي كانوا يحبونها كثيراً ومرضت أثناء سفر ابنتها الصغرى «حنان» إلى ألمانيا، فأخذتها إلى طبيب بيطري معروف بالزمالك، وكشف عليها وقال لها إن الحالة متأخرة وميؤوس منها، أعطاها حقنة، وما أن أخذتها، حتى بدأت لاسى تصرخ وتعوى إلى أن وصلت إلى المنزل ثم ماتت. وقد عادت حبيبته «حنان» لتوها، وكان الله أبقى «لاسى» حتى تعود رحمة بكلتيهما، ثم أشارت مدام جميلة إلى إحدى الأشجار وقالت هنا تنام لاسى.. تحت هذه الشجرة. وأخبرتها

أنا الأخرى حكايتي مع ذلك الطيب حين كان د. بيرج مسافراً فاضطرت لأن آخذ إليه كلبتي وهناك رأيت الكلب الجريفون البنى الصغير الذى أرسله أصحابه مع البواب إلى ذلك الطيب، وما أن اقترب الكلب من باب حجرة الكشف حتى تراجع إلى الخلف في خوف، لكن البواب حمله ودخل به ووضعه على ترابيزة الكشف وكل ثانية كنت أسمع صراخ الكلب حوالى عشر صرخات مؤلمة متتالية، ثم صمت الصوت تماما، وبعد حوالى عشرين دقيقة حمله التمرجي ووضعه على الأرض في الحجرة التي يجلس فيها الناس. نظرت إليه فرأيت فمه مليئا بالدماء، وعندما سألت البواب عن سبب ما حدث، فقال إن الطيب-كما طلب منه أصحاب الكلب - خلع له أسنانه كلها- وتذكرت صرخاته فأدركت أنه خلعها بدون بنج - ثم قال لى إنه أيضا أجرى عملية حتى لا يتزوج، فعرفت أنها عملية استئصال الخصيتين- والتي أخذت عشر دقائق من الطيب الذى أصبحت أكرهه أيضا، وكرهت أيضا أصحاب الكلب الذين أجروا له كل هذه العمليات مرة واحدة، ولأنهم أيضا لم يكلفوا خاطرهم بالحضور مع الكلب، بل تركوه مع البواب.

في يوم آخر وبينما كنت أطعم قمر وبلبل ومستكة جاءت مدام جميلة. في تلك اللحظة أحسست أنها تحبني كما أحبها، وأنها فرحت برؤيتي كما فرحت برؤيتها، فهي أم أولادي قمر وبلبل والجراء وأنا أيضاً أم أولادها. وكثيراً ما كنت أقول لها إنني سأحضر شنطة ملابسي و«لى لى» وأعيش في بيتهم، فتضحك وتقول لى: أهلاً وسهلاً.. إحنا عندنا أوضة فاضية.

أخبرتني أن أولادا في العمارة المجاورة لعمارتها سرقوا جراء كلبة بنية بعد أن ضربوها بالطوب إلى أن جرت وتركت أولادها، وأنهم أخذوا يلعبون بالجراء - التي عمرها أيام - في خشونة، وأن «حنان» «شخطة» فيهم واشتكتهم لأبيهم الذي لم يفعل شيئاً سوى أن قال لهم: «حقوق للأستاذ في مدرستكم». ثم أضافت أن تلك الجراء موجودة في بدروم مظلم ولا يوجد من يطعمهم. لذلك فهي تذهب هي وحنان كل يوم لإطعامهم. وأخبرتني أيضاً أن نفس هؤلاء الأولاد أخذوا «مستكة» وعلقوها بحبل من رقبتها في شجرة وضربوها بعصا كانت معهم، لكنها نزلت مسرعة وما أن رآها هؤلاء حتى جروا، وظلت آثار الحبل على رقبة مستكة فترة طويلة.

أثناء حديثنا مرقت سيارة تسير بسرعة جنونية فأحسست برعب شديد لأن قمر وبلبل ومستكة كثيراً ما يندفعون خارج الجراج إذا ما رأوا غرباء لينبحوا عليهم، وهذا الاندفاع المفاجئ

قد تصادفه أية سيارة مندفعة هي الأخرى وتدهسهم كلهم  
أو تدهس أحدهم.

بعد كل ذلك لم أعد أهناً بالليل ولا بالنهار. منتظرة في أي  
لحظة أن أسمع ذلك العواء الرهيب.

### (٢٣)

بعد عودتي من العمل أخبرني ابن الجيران أنه رأى ثلاثة أشرار  
صغار يلفون جبلاً حول رقبة مستكة ويربطونها في عجلة  
إحدى السيارات. وظلوا يضربونها بالعصا والطوب، وقال إنه  
هو ووالدته أخذوا يصيحان فيهم من الشرفة دون جدوى.  
فنزلتُ بسرعة وبحثت عنها بين وتحت السيارات، وبالفعل  
رأيتها مخنوقة بالجبيل في إطار إحدى السيارات، وحمدت  
الله أنها مازالت على قيد الحياة، فلو كانت السيارة تحركت  
لفرمتها دون أن يرى سائقها أي شيء! حللت وثاقها وربت  
عليها وصعدت للمنزل وأحضرت لها ماء فشربت ثم أعطيتها  
الـ٣سم من «ديكال ب ٢١» دواء الكالسيوم الذي كتبه لها  
دكتور بيرج، ودهنت يديها بالكريم.

بعد كل هذا الرعب أصبحت أكره الخروج من المنزل.

قررت اليوم أن أذهب إلى دكتور بيرج كي أطعم مستكة ولكي أحضر تطعيم قمر، وبالفعل أحضرت من عنده ٢ أمبول وحقنة بلاستيك وأخرى احتياطي وعدت إليها وأعددت لها الطعام ثم جلست قمر، واقتربت منها وأخرجت السرنجة وغرست الإبرة في غطاء إحدى الأمبولات وسحبته فدخل السائل في الحقنة ثم أخذت الأمبول الثاني، فإذا به بودرة صفراء فلم أدر ماذا أفعل، وعلى أي أمبول أضعه، وقررت أن أعيد السائل الذي سبق وأن أفرغته في السرنجة إلى الأمبول ونسيت كل ما علمه لي د. بيرج وهو يطعم مستكة، وتركت قمر وأنا ألعن اليوم الذي أحببتها فيه.

عدت إلى د. بيرج وأحضرت تطعيمات أخرى وحقنة أخرى وسألته عن التفاصيل وكيفية وضع البودرة على السائل، وذهبت إلى قمر وأخرجت السرنجة وأمبول السعار ووضعت غطاء الإبرة على إحدى السيارات وكانت يداي ترتعشان بشدة فلم أستطع وضع الإبرة في الأمبول، لكنني حاولت أن أتمالك نفسي قدر المستطاع، وبصعوبة وضعتها وسحبت السائل واقتربت من قمر وأمسكت بجزء من جلد ظهرها ورفعته إلى أعلى وغرست الإبرة وضغطت على السرنجة إلى أن أفرغت السائل كله في ظهرها دون أن تتحرك. لكنها في النهاية وبعد أن أخرجت الإبرة التفت ونظرت إليّ وكأنها تسألني: ماذا تفعلين في ظهري بالضبط؟ وبسرعة جهزت الحقنة

الأخرى التي ضد الأمراض وغرست الإبرة في الأمبول الذى به سائل أزرق وسحبها ثم أدخلت الإبرة في الأمبول الممتلئ بالبودرة ثم «رجيت» الأمبول بعد أن وضعتها على بعض ثم سحبت السائل بالسرنجة واقتربت منها بعد أن وضعتها على بعض ثم سحبت السائل بالسرنجة ورفعته جلدها وغرست الإبرة فيه وحرصت ألا تخترق الإبرة الناحية الأخرى حيث اللحم. أفرغت السائل كله وحمدت الله وتشاهدت بصوت مسموع وظلت يداي ترتعشان فترة طويلة.

## (٢٥)

في اليوم التالي كنت كالعادة في الجراج لإطعام أولادي، لكنني لم أر بلبل. ذهبت إلى جراج العمارة المجاورة للبحث عنها، فوجدتها تجلس تحت سيارة والبواب يقول لى: إنها لا تتحرك لأنها مريضة، اقتربت منها ووضعت لها الطعام والشراب فلم تقرب أيا منهما. كان نصفها الأسفل تحت تلك السيارة فخشيت إذا ما تحركت السيارة - وهى لا تستطيع الوقوف على قدميها - أن تدهسها، حاولت أن أحملها فلم أستطع، فاتصلت «بعمر» ابني الذى جاء بسرعة وحملها إلى الرصيف، فاستلقت بلا حراك، ثم أحضر لها ماء فشربته، ثم لبنا فشربت معظمه، وظللنا نراقبها، حتى بدأت تتقيأ. وكان الضوء ضعيفاً فلم أعرف إذا كانت تتقيأ دماً أم قيئاً عادياً،

ثم حاولت أن تقف لكنها لم تستطع ومرة أخرى حاولت فوقفت لمدة أقل من الثانية، لكنها سرعان ما تهاوت على الرصيف.

كانت هناك سيارة كبيرة تركن، وكانت راقدة عند مقدمتها، وجاء صاحبها فطلبت منه ألا يقود السيارة ولا يتحرك بها حتى نحمل بلبل بعيداً، لكنه أخبرني أنه سيعود إلى الخلف، وأثناء ذلك ارتجفت بلبل وأحسست برعب عليها لأن بينها وبين الطريق المليء بالسيارات متراً واحداً، فطلبت من عمر وبواب العمارة المجاورة أن نضعها على شوال لكي نستطيع حملها ونضعها تحت إحدى الأشجار في جراج عمارتنا، لعل حالتها تتحسن عندما ترقد في مكانها القديم.

وبالفعل أرقدناها، وجاءت قمر ومستكة فجلستا بجوارها، وجلست أنا الأخرى أربت عليها وأسترجع ذكرياتي معها وشراستها مع قمر ومع الكلاب الأخرى، لدرجة أن أحدهم عضها في ظهرها عضتين كبيرتين، وكانت تهرب مني كلما رششت عليها المضاد الحيوي الذي وصفه لها الطبيب، وكنت أدعو الله أن يلتئم الجرح وألا يتلوث.. والآن أين ذهب كل هذا؟ لم تعد تستطيع أن تقف على قدميها. وأحسست أن هذه ستكون ليلتها الأخيرة .

## (٢٦)

في الصباح رأيت بلبل راقدة في نفس المكان، وعلى نفس الجانب الذي أتمتها عليه أمس. كانت قمر ومستكة تحدقان فيها في حزن. اقتربت منها، لم تكن تتنفس، للموت رهبته وجلاله وقدسيته حتى في الكلاب.

وقمنا أنا وعمر والبواب بدفنها في حديقة مجاورة. كانت تلك هي نومتها الأولى والأخيرة على شوال ملمسه ناعم وليس على الأرض الخشنة.

## (٢٧)

لدى رغبة شديدة في كتابة هذه القصة، التي لا أعرف إذا كانت سترى النور أم أن البرج الوحيد الباقي في عقلي سيظير قبل أن أجد السكينة لأمسك القلم. وجدتني أكتب هذه الكلمات في رأسي وأنادي الورقة والقلم، لكن الكتابة تحولت إلى حلم وردى جميل، شأنها شأن كل الأحلام البسيطة، كالاستلقاء في الفراش وتناول الطعام وأحياناً حتى الذهاب إلى الحمام، ليس فقط للاستحمام وإنما لقضاء الحاجة. والسبب الرعب الذي أصبحت أعيش فيه، فمستكة لا تكف عن النباح.

نباحها ازداد الآن، أرى من النافذة كلباً أسود مخيفاً يقترب من قمر، أحضرت كل الطماطم من درج الثلجة وألقيت

عليه حبة طماطم، فابتعد ثم فوجئت به يقترب منها من ناحية أخرى فألقيت عليه حبة طماطم أخرى فهرب. لكنني اكتشفت أن الطماطم التي معي أوشكت على النفاد. فطلبت من زوجي أن ينزل ويشتري ٤ كيلو طماطم، فنزل واشتراها لي، وقسمتها على قسمين، قسم في حجرة عمر، حيث الشباك الذي أطل منه على الساحة، وقسم في الصالة حيث شباك آخر في نفس مجال الرؤية، وقفت أنظر من تلك النافذة طويلاً حتى أحسست بالجوع، فأكلت حبتين على سور النافذة وأنا أراقب قمر ومستكة. رأيت ثلاثة من تلك الكلاب رابضة في الساحة ثم صعد أحدها وجلس فوق إحدى السيارات المركونة ونام عليها.

على الناحية الأخرى رأيت طفلاً وأمه وأباه يمشون في اتجاه سيارتهم وكان الطفل يضرب الأرض بكرة فتصطدم بها ثم ترتد إليه. وفجأة رأيت أحد تلك الكلاب يجري ناحيته وينبح عليه بشدة، ففزع الطفل وتراجع إلى الخلف فحضنه أبوه وأمه ثم ركبوا جميعاً السيارة. وظللت أنا في النافذة أرقب ما يحدث في حزن.

كان قد مضى على وقوفي حوالى الساعة وأنا في حالة انتباه واستعداد تام لإلقاء الطماطم إذا ما اقتربت الكلاب من قمر ومستكة. تعبت فجلست على أحد الكراسي. لكن بعد دقيقة واحدة سمعت نباح مستكة، فقممت إلى النافذة ورأيت حوالى عشرة كلاب يقتربون من قمر ومستكة، وقام أربعة منهم باغتصاب قمر في مكان أبعد من أن تصل إليه الطماطم، ومع ذلك أخذت أمطرهم بوابل من الطماطم إلى أن خرجوا من

الجراج. وما أن بدأت أشعر بشيء من الارتياح حتى رأيت زوجي أمامي غاضباً وهو يقول: «إنتى مش هتقدرى تتحكمى فى الكون، والكلاب دي لو كنا نقدر نجيبهم عندنا فى البيت كنت عملت كده. لكن «لى لى» لن تستطيع العيش معهم، أنا مش قلت لك من الأول ما ترتبطيش بيهم عاطفياً.. كل اللي انت بتعمليه مفيش منه فائدة.. مش هينفع تقضى الأربع والعشرين ساعة فى الشباك تحرسيهم.. هتعملى إيه لو رحتي الشغل؟ كان غاضباً، فحاولت أن أهدئه، لكن بلا جدوى.

## (٢٨)

عند نزولي اليوم التالي للعمل، سألتني زوجة البواب: «حضرتك تعرفى مين اللي بيرمى الطماطم على الجراج؟» فسألتها: ليه؟ فأجابتنى: أصل الطماطم كسرت سقف عريبة الأستاذ محسن، فسألتها: محسن مين؟ قالت: اللي ساكن فوقكم.

على الفور تذكرته.. ذلك الرجل الطيب وزوجته الودود. انزعجت بشدة، وطلبت منها أن تذهب لتريني ذلك السقف المهشم، سيارته فولكس فاجن باسات، أحدث موديل، وتبدو جديدة تماماً، باستثناء السقف الزجاجي، الذى تهشم جزء كبير منه. ازددت انزعاجاً لدرجة أنني لم أبال بمستكة التي أخذت تحتك بساقي. وسألت زوجة البواب إذا كان الأستاذ محسن موجوداً الآن، فأخبرتني أنه خرج مع زوجته منذ دقائق بسيارته الأخرى، فصعدت إلى الشقة مهمومة وفي نيّتي

الذهاب إليه للاعتذار له والتصميم على دفع ثمن كل تلك الإصلاحات مهما تكلفت، لأنني يجب أن أتحمّل ثمن غلطتي، على الرغم من أنني حاولت كثيراً أن أتفادى أي سيارة أثناء إلقاء الطماطم.

وبمجرد عودتي من عملي ذهبت إلى شقة الأستاذ محسن وحاولت أن أشرح له المأساة التي أعيشها واعتذرت له على ذلك الخطأ غير المقصود فتغير وجهه، وحين أخبرته أنني مصرة على دفع كل تكاليف السيارة قال: إنه لا يعرف قيمة المبلغ المطلوب بالضبط، فطلبت منه أن يعلمني على الفور وكررت اعتذاري وانصرفت.

### (٢٩)

في اليوم التالي أخبرني الأستاذ محسن إنه ذهب إلى التوكيل فقالوا له: إنها ستتكلف حوالى خمسة آلاف وستمائة جنيه، وقع قلبي على الأرض لكنني حاولت أن أتماسك ثم أضاف أنه ذهب أيضاً إلى الحرفيين وسأل فقالوا له إن التكلفة ستكون حوالى ثلاثة آلاف وستمائة جنيه فوعده بإحضار المبلغ وانصرفت.

(٣٠)

لابد أن أقتل تلك الكلاب الشرسة! أردت أن أعرف إذا كان هذا حلالاً أم حراماً، فاتصلت بأحد الشيوخ وشرحت له المشكلة وأخطارها وأبعادها، فقال لي: مادامت الكلاب مؤذية وليست للحراسة فيجوز التخلص منها، لكنني لم أرتح لهذه الفتوى. اتصلت بمدام (جميلة) وأخبرتها بما حدث فقالت لي: «وتأخذي ذنبهم ليه.. دي فترة وهتعدى.. ثم أضافت قائلة: ما تاخديش وزرهم. ارتحت لما قالت وتذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه أنه لا يجوز القتل إلا للكلب المسعور، وقوله أيضاً: استفت قلبك وإن أفثاك الناس.. وهذه الكلاب غير سعرانة، بدليل أنه عندما أنزل إليهم وأهشهم يتعدون على الفور.

(٣١)

لم أعد أملك رفاهية تغيير ملابس الخروج، فبعد أن كنت أسارع بارتداء البيجاما القطنية الناعمة بعد خشونة البنطلون الجينز، مضطرة الآن أن أظل مرتدية ملابس الخروج والحذاء الكاوتش، تحسباً لأي مصيبة تحدث لقمر أو مستكة. حتى برامج التليفزيون المفضلة عندي في قناة الجزيرة والجزيرة الوثائقية لا أملك الوقت ولا راحة البال لأشاهد شيئاً منها، حتى شراء أشياءي الخاصة صار حلماً عزيز المنال، فمعظم

شراباتي القطنية البيضاء «داب أستكها» ومعظمها مهترئ  
وأحيانا أرتدى فردة وفردة.. أصبح الرعب يشلني، وأصبحت  
كل ألوان حياتي بين درجات اللون الأسود.. واللون الرمادي..  
الله يخرب بيتك يا قمر وبيت اليوم الي حبيت فيه  
الكلاب.. على الطلاق بالثلاثة من رشدي أباطة لو شفت  
كلب في شارع هسييه وأمشى في شارع ثاني.

### (٣٢)

لستر ربنا كنت قد قبضت جمعية بثلاثة آلاف جنيه واستدنت  
الستمائة الأخرى وصعدت للأستاذ محسن في الموعد المحدد  
بالضبط وأعطيتها إياه وشكرته على تفهمه وكرم أخلاقه.

وكانت مدام جميلة - بعد أن عرفت حكاية الأستاذ محسن  
- قد أصرت على أن تقرضني الثلاثة آلاف جنيه.. وألحت عليّ  
وأحسست بصدقها وشهامتها، لكنني رفضت شاكرة فقالت لي:  
ياريت تبطلي تأكلي قمر ومستكة وأنا هحط لهم أكل ، لأنهم  
أي حاجة هتحصل في الجراج هيقولوا إنت وكلابك السبب.

(٣٣)

لم أعمل بنصيحتها.

في مساء اليوم التالي تقابلنا أنا ومدام جميلة في الجراج  
لنطعم قمر ومستكة، فإذا برجل وزوجته وابنه يتوقفون  
أماننا ويقول الرجل: «اتفضلي حضرتك أكليهم كده لغاية لما  
يهجموا على حد».

قلت له:

- إنت عمرك شفتهم بيهجموا على حد.. أقصى حاجة  
بيعملوها هي الهوهوة.

- لو طفل معدى هيهجموا عليه.

- مش ممكن.. دول بيخافوا بالذات من الأطفال، لأنهم  
على طول بيرموا عليهم طوب، وما تقلقش حضرتك لأنهم  
متطعمين هما الاثنين.

- حضرتك بتأكليهم ليه.. ده فيه ناس فقرا جداً عند الترب.

- هو عشان أنا بأكل الكلاب يبقى معنى كده إني مش بادی  
الفقرا، مش لازم أعلنها في الجرايد لأن ده شيء لوجه الله.

فتدخل ابنه - وهو في حوالى الحادية عشر - قائلاً:

- برضه ما تأكليهمش

غضبت، لكنني تماكنت نفسي وقلت له:

- تعرف إن فيه واحد دخل الجنة علشان شرب كلب عطشان؟  
دول ولادي وبحبهم.. ليه بس بتفتكروا إن الكلاب نجسة  
وتنسوا رحمة ربنا اللي حطها في قلوبنا؟

رد الولد بنفس الوقاحة:

- برضه ما تأكليهمش.

فغضبت وقلت له:

- لما الكبار يتكلموا الصغيرين يسكتوا!

فأجاب بسخرية واستهزاء:

- هو إنت كبيرة!!؟

### (٣٤)

عندما يأتي الليل أتحلل تماماً. أتذكر قمر ومستكة تحت  
رحمة الليل.. فيتحلل وجهي إلى عشرات المدن الغارقة ويتحلل  
جسدي إلى آلاف الموتى، وترحل روحي بعيداً فلا أستطيع  
اللاحاق بها أو حتى توديعها، يتهاوى كل شيء فأجديني أهوى  
إلى بئر عميقة بلا ماء ولا قاع.

(٣٥)

في حوالى الخامسة بعد الظهر وأنا مع قمر اقترب منى رجل يبدو عليه أنه هربان من مستشفى الأمراض العقلية وأخذ يتجه ناحيتي بخطى بطيئة وهو يحدق في وعلى وجهه ابتسامة بلهاء، وكأنه قادم لاغتصابي في هذا المكان النائي الذى أقف فيه، فخفت وأردت أن أصرخ فلم يخرج صوتي، وظل متجها ناحيتي، وفجأة نبحت قمر عليه واقتربت منه عدة خطوات، فسرعان ما اتجه لطريق آخر فحمدت الله وأخذت أربت عليها وأقبل رأسها.

(٣٦)

يبدو أنني قمت بحركة خاطئة، كأن قبضة حديدية حطمت عمودي الفقري وسكنت في أسفله، لم أعد أستطيع الحركة أو حتى القيام من المقعد إلا بعناء وعذاب وصراخ. وبالطبع لم أستطع أن أطعم قمر ومستكة لأنني لم أعد أستطيع الانحناء لوضع الطعام لهما، ناهيك عن بذل مجهود لإبعاد قمر عن مستكة. فقررت الاتصال بمدام جميلة حتى تتولى إطعامهما صباحا ومساءً..

سمعت جرس الباب وإذا بي أراها أمامي، ففرحت بها، لكنني رأيت وجهها مقطباً وحزيناً، وقبل أن أقول لها تفضلي قالت:

- مستكة سموها وماتت.

- يمكن عيانة.. يمكن نائمة.

- لا، دي متخشبة. أنا مستنياكى تحت علشان ندفنها.

### (٣٧)

ارتديت ملابسي بصعوبة شديدة وبصرخات ألم. ونزلت فرأيت مستكة. اقتربت منها وأنا أبكى، وطلبت من البواب دفنها. كان قلبي مع قمر. التي - ولأول مرة - لم تنبح على البواب ولا على أحد، بل أخذت ترقبه بعينين حزينتين وهو يأخذ ابنتها بعيداً.. تركتها لكي أذهب معه. في الحديقة الجرداء المجاورة، حفر حفرة صغيرة بجوار قبر بلبل. وتساءلت: هل تعرف بلبل أن حفيدتها التي عمرها أقل من أربعة أشهر ماتت وستدفن إلى جوارها؟ بينما كنا نسير اقترب منا شاب وقال: البقية في حياتكم.. فرددت عليه: إنت بتتريق حضرتك. فقال: لا والله وأنا أعلم أنه كاذب .

### (٣٨)

عندما سعدت للمنزل تذكرت أنني لم أصور مستكة أبداً، وتضايقت كيف لم أفعل وأنا التي تعيش في حالة رعب شديد من فقدان من تحب، هل هو استسلام لأنها ستموت في أي

لحظة، وفي النهاية تتساوى الصورة بالفقدان؟ ما الذى جعلني أنسى أن الصورة وحدها خالدة، وأن البشر يموتون.

### (٣٩)

أذن المغرب.. فأخذت أدعو لمستكة بالرحمة، وتمنيت لو أراها في الجنة مع كل الكلاب الذين أحببتهم، وتساءلت هل تدخل الكلاب الجنة؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: «لكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون» صدق الله العظيم؟ ألم يخلق الله نهراً من الخمر في الجنة؟ أليس سبحانه وتعالى قادراً على ذلك بكلمة: «كن فيكون» أتمنى أن أسأل أحد الشيوخ ويكون حنوناً ومتفهماً حتى لا يرد علىّ بفظاظة أو ينهرني، أو يعتقد أنني أمزح.. وتذكرت امرأة قابلتها في عيادة د. بيرج قالت إنها اتصلت بأحد الشيوخ لتستفسر منه عن شيء معين خاص بالكلاب، وما أن سمع كلمة كلاب حتى أغلق السماعة في وجهها، لكن لا أحد يستطيع أن يمنعني من أن أتعشم خيراً في وجه الله الكريم، ولا أحد يستطيع أن يحيط برحمته الواسعة.

أخبرتني مدام جميلة أنها في العام الماضي كانت هناك كلاب تعيش بالحديقة التي بجوار منزلها، وكانت تطعمهم، وذات ليلة رأت ثلاثة شبان يخرجون من سيارتهم يرتدون قفازات ويلقون بطعام - اتضح فيما بعد أنه مسموم - للكلاب، وانصرفوا مسرعين، فهرعت حنان ونبيلة وأخذتا تجمعان هذا

الطعام من الحديقة حتى لا يتسمم الكلاب، وفي اليوم التالي استطاع هؤلاء أو آخرون أن يسموا كلبة كانت قد أنجبت سبعة جراء في اليوم السابق، وظلت الجراء السبع ثلاثة أيام بدون رضاعة، فأخذتهم حنان إلى كلبة أخرى رأتها ترضع جراءها تحت إحدى السيارات ووضعتهم عندها، فأخذت الكلبة ترضعهم وهي ترضع أولادها معهم، وبعد يومين رأت هذه الكلبة وكل الجراء الخمسة عشر مسمومين.

ثم أخبرتني أيضاً عن جارة لها وضعت السم في طعام لكلاب في الساحة وكانت الكلاب صغيرة، وما أن تأكل من الطعام حتى تسقط على الفور ميتة. وماتت كل الكلاب باستثناء أحدهم ولم تتركه أيضاً وإنما طلبت من أبناء البواب حمله ووضعه في سيارتها وأخذته بعيدا حتى تتخلص من كل تلك الكلاب.

## (٤٠)

قمر أصبحت وحيدة تماماً في هذه الدنيا. وفي الساحة أنزل إليها، أقترب منها، رأسها منكس، عيناها حزینتان، شاردتان، وما أن أربت عليها حتى ترمى على الأرض، أضع يدي تحت خدها وأمسح على خدها الآخر بيدي اليسرى، تقوم لتجلس في نفس المكان الذي ماتت فيه مستكة، وأتساءل: ما الذي فعلته مستكة لكي تقتل بهذه الوحشية؟ كانت ودودة مع كل الناس، كلما رأت أحداً تقترب منه وهي تهز ذيلها، وإذا

حدث وربت أحد عليها تتهاوى على الأرض وترفع عينيها له بكل الود والحب والحنان، كانت تفعل ذلك معي ومع عمر، لدرجة أنها كانت تتبول عندما أربت عليها وتقع حباً على الأرض.. كنت أخشى أن يكون عندها سلس بولي، فسألت دكتور بيرج فضحك وقال: لا لا، هذا من الفرحة.

### (٤١)

في طريقي إلى العمل سمعت جارنا الفكهاني الذي أمامنا ينادي يا عمر.. يا عمر.. ورغم أنني كنت في حالة نفسية سيئة بسبب موت مستكة إلا أنني ذهبت إليه فقال لي: أنا بنادي عليكى علشان أعزيكى.. شفتك إمبراح بتعيطي، فأخبرته أن كلبتي ماتت، فقال: ده أمر الله. قال ذلك وأنا أعلم أنه لا يمزح ولا يسخر، فهذه ليست المرة الأولى التي أعرف فيها شهامته، ففي أحد الأيام وبعد عودتنا بأمي من المستشفى كنا نحملها أنا وزوجي والبواب وزوجته وكادت تقع من على الكرسي المتحرك، فصرخت وفوجئت به يأتي مسرعاً ويحمل أمي على كتفه ويصعد بها إلى الشقة ويضعها في فراشها، ومنذ ذلك الحين وله معزة كبيرة في قلبي وإحساسي بالجميل لا ينتهى، وازدادت عندما عزاني في موت مستكة، لكنني فوجئت بسيدة محجبة واقفة في المحل تتدخل في الحديث وتقول له: في كل الأحوال الحمد لله إن الكلب مات.

- ليه؟

- مفيش حاجة في الشرع تخلى الواحد يربي كلب في بيته.

- دي ماكانتش في البيت، كانت في الشارع، ودي كانت بنتي.

- مش البنى آدمين بيموتوا.

- بس مش بتقولي الحمد لله إن فلان أو فلانة ماتت.

## (٤٢)

في ظهر أحد الأيام رأيت مدام «جميلة» و«حنان» مع قمر في الساحة، ووقفنا ننظر نحن الثلاثة إلى قمر، ونتساءل هل ولدت أم أنها مازالت حامل؟ ووضعت «حنان» يدها على بطنها، وقالت إنها تعتقد أنها مازالت حاملاً، لكنني رجحت أن تكون قد ولدت لأن أئدها كبرت.

وفي اليوم التالي عندما نزلت إليها كانت تصوو من شدة الألم، ورقدت تحت إحدى السيارات، وأخذت تحفر الأرض بيديها ثم تهوى إلى الأرض وهى تبكى من شدة الألم فعرفت أنها ستلد قريباً جداً، لأنها فعلت نفس الشيء في المرة السابقة. ونزلت عدة مرات للاطمئنان عليها، وعلى الرغم من إرهاقي وعطشي بسبب صيام رمضان.

وجاء موعد الإفطار فأفطرت وكانت الدنيا قد أظلمت فازداد خوفاً على قمر، واتصلت بجارتنا مدام «جميلة» وسألته إذا

كنا سنحتاج أن نأخذ قمر إلى دكتور بيرج لأن الولادة متعسرة، فقالت: «لا تخافي، اعتمدي على الله، وحنان معها دلوقتي»، فأخذت أدعو لها وأحسست برحمة وحنان ربنا الذي يشمل كل مخلوقاته حتى كلبة الشارع التي ليس لها سواه.

بعد قليل اتصلت بي مدام «جميلة» وأخبرتني أن «حنان» قالت لها: إن قمر ولدت أربعة جراء، فحمدت الله ونزلت على الفور ورأيتهما نائمة وبجوارها أطفالها.

### (٤٣)

في صباح اليوم التالي نزلت لقمر فرأيتهما نائمة تحت إحدى السيارات وجروان يرضعان منها وآخران ميتان، فحزنت لموتهما وحملتهما بعيداً عنها تمهيداً لدفنهما، فقامت قمر تصوصو وتنظر إليهما، وأمسكت أحدهما بفمها من رأسه وأرجعته إلى الحفرة التي تجلس بها، فتركته لها، وأخذت أطعمها بيدي في فمها، وأحسست بسعادة كبيرة وأنا أفعل ذلك، ثم أحسست أنها عطشى فقربت منها الماء فشربت كثيراً، وحمدت الله على فضله وكرمه.

### (٤٤)

في اليوم التالي مات ابنها الثالث، وقمنا أنا وحنان بدفنهم جميعاً. تساءلت عن السبب، وعرفته عندما نظرت إلى حلماث أئدائها: وجدتها كبيرة بشكل غير طبيعي، فعرفت سبب

موت الجراء الثلاثة: لأن فهم أصغر بكثير من تلك الحلمات، أي أنهم ماتوا من الجوع. اقتربت من قمر وأخذت أمسح رأسها، وكنت أشعر بقربي من الله. وقلت لها: أشكى همك لربنا.. ربنا أبو كل المخلوقات.. وهو حنين وكريم ومتفهم.. ربنا يعوضك في الجنة يا قمر.

الجررو الوحيد الباقي كان في حالة ضعف شديدة، فقررت الاتصال بدكتور بيرج لسؤاله عما يجب فعله، وعن نوع اللبن الذي ينصحني به، فوصفه لي، وأسرعت إلى الصيدلية لشراء اللبن والسرنجات البلاستيك التي سنطعم من خلالها الجرو، وأثناء عودتي قابلت مدام جميلة وأخبرتني أنها ستأخذ الجرو المتبقي عندها لترضعه حتى لا يموت، لأنها لا تستطيع أن تنزل ثماني مرات في اليوم ولا تقدر على الركوع لآلام تصيبها في ظهرها وركبتيها، وما أن حملت الجرو حتى أخذت قمر تصوصو وتجري خلفها.

## (٤٥)

في العصر اتصلت بـ مدام جميلة للاطمئنان على «حفيدي» ابن قمر فأخبرتني أنه يرضع قليلا من البيرونة التي اشتريتها له «حنان» من الصيدلية، لكنه لا يرضع كل المكيال الذي نصح به الدكتور بيرج، إلا أنه مازال على قيد الحياة، وأخبرتني أنها عملت بنصيحتي وجعلت «حنان» تأخذه إلى قمر التي ما أن رأته حتى جنت ووقفت على ساقى «حنان» بيديها وأخذت

تبكى وتصوحو وأرادت أن تخطفه بفمها وتهرب بعيداً، لكن حنان قالت لها: أنا وعدتك أنى هجيبه لك يا قمر، بس سيبيه دلوقتى، ح ارجعه ليكى، ماتخافيش، ويبدو أنها فهمت كلام «حنان» لكنها ظلت تبكى وتبعثها إلى مدخل منزلها، وعندما نزلت «حنان» مرة أخرى اعتقدت قمر أن ابنها معها فأخذت تجرى وراء السيارة.

### (٤٦)

في اليوم التالي وفي حوالى التاسعة والنصف صباحاً اتصلت بي مدام جميلة. كان صوتها حزيناً. أخبرتني أنها لم تنم منذ الأمس بسبب ابن قمر، لأنه لم يرضع أي نقطة لبن، وتصدر عنه أصوات تشبه بكاء البشر الرضع، وطلبت منى الاتصال بدكتور بيرج، فقال: اعطيه ماء بسكر وطلب أن يراه في العيادة، واتفقت معها على أن نذهب إلى عيادته في المساء.

### (٤٧)

بعد حوالى أقل من ساعة سمعت طرقات على الباب. كانت زوجة البواب. أخبرتني أن مدام جميلة في انتظاري في مدخل العمارة، حين نزلت إليها قالت مدام جميلة إنها لم تستطع الانتظار حتى المساء وأنها أخذت ابن قمر مع ابنتها «نبيلة» إلى مستشفى الشعب، وأن الدكتور هناك علق له محلول

جلوكوز وأخبرها أن الكلب ضعيف، وتعجب من أن عمره خمسة عشر يوماً، ولم يفتح عينيه بعد.. وطلب منها إعطائه محلول معالجة الجفاف، لكنه أكد ضرورة أن يرضع من أمه.

ثم أخذنا نبحت نحن الثلاثة عن قمر، فرأتها «نبيلة» - أخت حنان الكبرى وهى طيبة لم أر أرق ولا أنعم ولا أعذب منها - تحت سيارة مغطاة أمام منزلهما، فنادت عليها لكي تخرج فلم تخرج، فقربت منها ابنها الرضيع، وما أن شمت رائحته حتى خرجت على الفور، وأخذت تبكي، وتوصو وتلف حول نبيلة وتجري خلفها، ثم ذهبنا بها إلى نفس المكان الذى ولدت فيه ووضعت نبيلة الجرو على أحد أثداء قمر لكي يرضع فلم يرضع، ففتحت فمه وأدخلت فيه الحلمة، لكنها كانت كبيرة جداً على فمه، فأخذت نبيلة تضغط برفق على الحلمة لكي ينزل منها اللبن، لكن الرضيع لم يتحرك وبدا أشبه بقطعة قماش بالية . فتذكرت محلول الجفاف، وذهبت به في الصباح إلى منزل مدام جميلة التي قالت لى إن ابن قمر بدأ يتعب، وأنه منذ الواحدة والنصف بعد منتصف ليلة أمس ظل يصرخ كل دقيقة ويفتح فمه.. وطوال الليل وهو هكذا. تأثرت بشدة لحنانها معه حيث إنها لفته في قطعة قماش طرية وناعمة ونظيفة ووضعت على صدرها كأنها رضيعها. وحاولت إرضاعه بالبيرونة، لكنه لم يرضع شيئاً ونزل اللبن من جانب فمه.

(٤٨)

تركت منزل مدام جميلة وذهبت إلى قمر، شعرت برغبة شديدة في أن أحضنها. ناديت عليها فخرجت من تحت السيارة، وجلست بين سيارتين، ركعت وأخذت رأسها في حضني وأخذت أمسح بيدي على رأسها وجسدها، فترة طالت أم قصرت.. لا أدري.

(٤٩)

سمعت رنين الهاتف، كانت مدام جميلة. سألتها بلهفة عن الرضيع فقالت: تعيشي انتي. ثم أخبرتني أنها عندما كانت تحمله على صدرها تقيأ كل ما في بطنه عليها، وبدأ صوته في الخفوت قليلاً.. قليلاً.. إلى أن تلاشى تماماً، فاتصلت بابنتها نبيلة التي جاءت على الفور، وكشفت عليه، وأكدت أنه مات ، وقامت بلفه في قماشة، ونزلت هي وحنان فقابلتهما قمر لكنها لم تشم رائحة ابنها هذه المرة ودفنتاه في نفس المكان الذي ولد فيه، وأخذت أربت على قمر التي لم ولن تدري أن ابنها دفن هناك وأنها حرمت منه ولن تراه مرة أخرى.

(٥٠)

سمعت صوتاً يشبه صراخ قمر، لم أكن متأكدة، فنظرت من شباك السيارة، وللمرة الأولى أرى كلبين من تلك الكلاب الشرسة المخيفة التي ترافق قمر هذه الأيام، لكنني لم أكن متأكدة أنه صوت قمر فذهبت إلى العمل، وعندما عدت توجهت إلى نفس المكان فسمعت صوت قطة تصرخ. مشيت في اتجاه مصدر الصوت. فإذا بي أرى ثلاثة من تلك الكلاب وكان أحدها يمسك بفمه قطة من رقبتها ويطوحها يميناً ويساراً وأنيابه تنغرس في رقبتها والقطة تصرخ، فأصبحت برعب وأمسكت بحجر صغير التقطته من على الأرض وألقيته عليه ففتح فمه فسقطت على الأرض.. تحركت القطة خطوة واحدة لكنها سرعان ما ارتدت ورقبتها نصف مقطوعة وهي تجر نصفها السفلي في محاولة أخيرة للنجاة، لكنها سرعان ما سقطت ميتة.

في تلك اللحظة تملكنتني قوة من أجل إنقاذ قمر، فنظرت أسفل السيارات المركونة وأخذت أنادى عليها، لم أرها، رأيت كلباً يشبهها وله نفس لونها، لكنني سرعان ما تأكدت أنه ليس قمر، لأن له ذيلاً وهي ولدت بلا ذيل.

قررت الاتصال بعمر لأخبره أن قمر في مشكلة، وشرحت له حكاية تلك الكلاب الشرسة وأخبرته أنها تحت إحدى السيارات ولا تستطيع أن تهرب منهم فقال لي: سأنزل لهم.

أحسست بخوف شديد عليه من تلك الكلاب المتوحشة فأسرعت وصعدت للمنزل وأخبرته - كذباً أنهم يريدون فقط أن يتزوجوها - ثم ذهبت إلى بلقونة الحمام - وهى الشرفة الوحيدة التي نرى من خلالها الشارع، ورأيت بائع الفول الحراقى الذى تقف عربته قرب منزلنا يمسك بعضا ويهش تلك الكلاب فجرت كلها، وإذا بي أرى قمر بينهم!

### (٥١)

في صباح اليوم التالي رأيت قمر وحدها فنزلت مسرعة، وددت لو أقبلها وأقبل يديها وأخذها في حضني وأقول لها، وحشتينى يا قمر.. وحشتينى.. وما أن بدأت أضمها إلىّ حتى تهاوت إلى الأرض، ولاحظت أن بطنها منتفخ فأدركت أنها حامل، ورأيت جرحاً عميقاً في أسفل بطنها، بدا وكأن حلمة أحد أثدائها قد انتزعت وأصبح مكانها فراغاً مليئاً بالدم، فأدركت أن هذا الجرح تسببت فيه تلك الكلاب المتوحشة، فصعدت للمنزل لإحضار الإسبراي - المضاد الحيوي - حتى لا يتلوث الجرح، لكنني وجدت الزجاجاة فارغة، فاتصلت بعدة صيدليات فلم يرد أحد، فنزلت للصيدلية التي بجوار المنزل فوجدتها مغلقة وملصقاً عليها ورقة مكتوب فيها: «الصيدلية مغلقة تضامنا مع الشعب المصري ضد مصلحة الضرائب.. فذهبت إلى صيدلية أخرى فوجدتها مغلقة أيضاً تضامنا مع الشعب المصري، فأحضرت لها من المنزل مركيوريكروم وقطنا ونظفت لها الجرح، وقدمت لها الطعام فلم تأكل، ظلت

راقدة في حالة إنهاك بعد الاغتصاب الوحشي، ووضعت يدي على الأرض تحت خدها وحضنت خدها الآخر بيدي الأخرى وأخذ أمسح بيدي على رأسها وجسدها مرات كثيرة حتى أحسست أنها في حالة أفضل قليلاً .

## (٥٢)

جاء يوم الجمعة، اليوم الذي أنتظره طوال الأسبوع حتى أستيقظ وقتما أشاء وأشرب الشاي وأفطر على مزاجي، لكن لا هذا ولا ذاك حدث، فقد صحت على صراخ قمر فنزلت ورأيتها مكومة على الأرض وبجوارها مدام جميلة وحنان، فسألتهما عما حدث، فأخبرتني أنها في الثالثة صباحاً استيقظت على صوت تلك الكلاب الشرسة، وكانت قمر تختبئ منهم تحت إحدى السيارات، كانت تصدر أصواتاً أشبه بالبكاء وأنها - تكمل مدام جميلة - عملت بنصيحتي وألقت ماءً على تلك الكلاب فخرجت قمر خائفة من تحت السيارة، وما أن فعلت ذلك حتى هجمت الكلاب وعضتها وأخذت قمر تصرخ وتعوى، لكن لم يستطع أحد النزول إليها في تلك الساعة المتأخرة.

في الصباح المبكر نزلت، فرأيت قمر معوضة ثلاث عضات عميقة في ساقها من أعلى، فحاولت تنظيف الجرح بالمطهر لكن قمر ظلت تصرخ رافعة قدمها اليسرى ولا تستطيع لمس

الأرض، ظلت مكومة على الأرض وظهر العظم من جرح ساقها المنهوشة.

ولهول ما رأيت أحسست برغبة شديدة في حمايتها، ولم يكن عندي مكان آخر أضعها فيه غير «منور» عمارتنا. عرضت هذه الفكرة على مدام جميلة فاستحسنتها. وحملنا قمر من تحت إبطها، وبصعوبة شديدة سرنا بها ببطء ناحية باب «المنور»، وما أن اقتربنا منه حتى تراجع قمر للخلف ورفضت الدخول، وعادت إلى الجراج مرة أخرى، أعدنا المحاولة حاملة إياها بين ذراعي، كاد قلبي يتوقف وأخذت (أشعر) كالحمار، أدخلناها وأغلقتنا عليها الباب.

وأثناء عودتي لعمارتنا نظرت إلى قمر من خلال السلك الذي يحيط بالواجهة الأمامية للمنور، فرأيت أجمل عينين عسلياً لونهما وأنبل وجه، كانت تبكي بصوت عال وأعلم أن الجيران سيتضايقون من هذا الصوت - وربما تظل تعوى طوال الليل - فذهبت وفتحت الباب فرأيتها واقفة على صندوق خشبي قديم بجوار الباب حتى تستطيع رؤية الخارج من خلال السلك. أخذت تنظر إلى وإلى الأرض فقلت لها: أنا عارفة إنك متقدريش تنطي يا قمر. حملتها بصعوبة وضممتها بحنان وحب إلى صدري وأنزلتها على الأرض، كانت لحظة تساوي الدنيا وما فيها.

(٥٣)

بعد عدة أيام اتصلت بي مدام جميلة وأخبرتني أن قمر ولدت في الحديقة الجرداء التي بجوار منزلها، في مكان خفى لا يستطيع الأطفال الأشرار ولا كلاب جهنم أن يصلوا إليه، فذهبت مهرولة وأخذت أنادى عليها. وبعد عدة دقائق خرجت لى من تحت كوم أغصان النخيل وبعض أغصان الأشجار اليابسة، وأخذت أمسح على رأسها وأقول لها: حمد الله على السلامة يا قمر، لكنني لاحظت أنها خائفة، تتلفت يميناً ويساراً وتطيل النظر إلى تلك الكومة التي يعيش فيها أطفالها. قدمت لها بعض الطعام فأكلته بسرعة ثم لحقت بصغارها تحت الكومة.

(٥٤)

مرة أخرى أستيقظ في الليل على نباح كلاب جهنم. كانوا يحيطون بمخبأ قمر، نظرت ناحية شرفة مدام جميلة فرأيتها هي وزوجها وحنان يهشون تلك الكلاب، وبعد فترة طويلة ابتعدت الكلاب.

في صباح اليوم التالي رأيت قمر تجرى في الساحة كالمجنونة، فنزلت فوراً، فرأيتها تحاول الولوج إلى حفرة تحت إحدى العمارات. لم تستطع لصغر الحفرة، ورأيتها تأتى إلى الجراج

الخاص بعمارتنا وتحفر بيديها في الأرض، ففهمت أنها تبحث عن مكان آمن لأولادها. لكن بلا جدوى، وسرعان ما أصابها اليأس فهرعت مرة أخرى إلى أطفالها.

(٥٥)

في اليوم التالي قابلت مدام جميلة بجوار عشة قمر، التي كنت قد بحثت عنها بلا جدوى، فأخبرتني أن بعض الأولاد جاءوا وفي يدهم عصا طويلة لضرب قمر، فتركت أطفالها وجرت مذعورة، وأنهم اقتحموا عشتها وسرقوا ثلاثة جراء وانطلقوا بهم، لكن مدام جميلة صرخت فيهم من النافذة فخافوا وأعادوا الجراء إلى العشة وأخبرتني أيضاً أنها ذهبت إلى أب هؤلاء الأطفال وقالت له: «مش حرام عليك تطلع ولادك مفيش في قلوبهم رحمة، حرام عليك، ده إنت لسه راجع من الجامع، أوعدني وإننت راجل صعيدي وكلمتك واحدة أنهم ما يقربوش للكلبة دي تاني وما يحاولوش يسرقوا أولادها.. كده يموتوا، دول لسه بيرضعوا». ثم أخذنا أنا وهي نطعم قمر، وأثناء ذلك جاء رجل يركب سيارة فيات وقالت لي مدام جميلة وقد بدا عليها الضيق: إنه رآها مرة وهي تبحث وتنادى على قمر، وعندما جاءت قمر علق بسخرية واستهزاء: تعالي لماما.. تعالي لماما.. فتألمت من سخريته لكنها لم ترد عليه، وأخبرتني أيضاً بأنها بالأمس سمعت صراخ قمر، فهرعت إلى الشرفة، لترى البستاني الذي كان يسقى الحديقة المجاورة وقد أغرق عشة قمر التي خرجت منها وهي تعوى

فنزلت حنان مسرعة وقامت بإخراج الجراء كلها وأحضرت  
رملاً نظيفاً كان أمام العمارة يستعمله أحد الجيران لتغيير  
حمامه، وفرشته لهم، وعندما سمعت ذلك أخذت أدعو  
لحنان بسعادة الدنيا والآخرة.

### (٥٦)

اليوم أول مرة أرى جراء قمر الجدد، أحدهم لونه بيج والآخر  
بنى فاتح، أما الثالث فهو أبيض على بقع سوداء. أعشق  
الكلاب الوليدة، لكنه فرح مشوب بالحذر، وبالخوف من  
تكرار المصائب من قتل وتسميم واختفاء. فرحتي جعلتني  
أقترب منهم وأمر بإصبعي على رؤوسهم. ثم سمعت صوصة  
تأتي من بعيد فذهبت ناحية الصوت لأرى أحد الجراء خارج  
العشة ويحاول الدخول إليها، لكنه لا يستطيع لوجود حجارة  
كبيرة عند الباب، حملته وأدخلته إلى العشة، ثم أطعمت قمر  
التي ما أن أكلت وشربت حتى نامت وهي في حالة إنهاك  
شديد.

### (٥٧)

لم تكن هذه مثل كل الليالي، سمعت صراخ قمر خمسة  
عشرة دقيقة متواصلة، ورأيت كلاب جهنم تخرج من عندها  
وصراخها مازال يدوى. لم أدر ماذا أفعل، فقد كانت الساعة  
الثالثة صباحاً.

أول ما شقشق الصباح ذهبت إليها. ناديت عليها. رأيتها تخرج في بطء شديد من تحت إحدى السيارات، وهالني ما رأيت: انتزعوا جزءاً كبيراً من فروة رأسها، بالإضافة إلى جرح كبير بالقرب من أذنها اليسرى. لعدة ثوان وجمت، لكنني بعد ذلك سارعت بإخراج المرهم من الحقيبة التي معي ووضعت طبقة سميكة منه على رأسها وأخرى على أذنها، وانتابنتني حالة حزن وهم وإحساس بالعجز المطلق.

### (٥٨)

في اليوم التالي رأيت رجلاً يتحرك بجوار عشة قمر، فصرخت من الشرفة إلى داخل البيت: الحق يا عمر.. الحق قمر.. فنزل مسرعاً وتابعته أنا بالملوبايل وقال لي: إنه جارنا الأستاذ (رؤوف) زوج مدام (جميلة) مع ابنته (حنان). نزلت فرأيته يضع سياجاً حديدياً قوياً حول عشة قمر وأولادها، كان جالساً على ركبتيه ويداه مجروحتان ينزف منهما الدم من آثار ربط أجزاء السياج بأسلاك قوية حتى لا تقع وحتى لا تنفذ الكلاب المتوحشة إليهم. تساءلت ما الذي يجعل رجلاً في حوالى الخامسة والستين ينحني على الأرض ويتعب ظهره وتجرح يده لكي ينقذ حياة بعض الكلاب، إلا رحمة وإنسانية وضعها الله في قلبه. قمت أنا وحنان بتنظيف العشة التي امتلأت بأكياس النايلون القديمة وأوراق الأشجار اليابسة وسعف النخيل وعلب فارغة، وأثناء ذلك تدافعت حولنا الجراء وقالت لي حنان: «أصلهم جعانين، وقمر مش

قادرة ترضعهم» .. فقد كانت راقدة على الأرض بلا حراك..

كان الجزء العلوى من العشة مازال مكشوفاً فأخذنا نحن الثلاثة نبحث عن أغصان النخيل الملقاة على الأرض وأوراق الأشجار الكبيرة وفرشناها فوق سطح العشة حتى تقيهم المطر، وجرحت أيادنا كلنا من أشواك تلك الأغصان الحادة المدببة. وقد ترك المهندس رؤوف باب العشة مفتوحاً لى تدخل وتخرج قمر، وقمت وحنان بدرجة حجر كبير كي نضعه عند باب العشة حتى لا تخرج الكلاب الصغيرة. وفي أثناء ذلك نزلت مدام جميلة ومعها طبق كبير به أرز وشوربة وقطع دجاج صغيرة، فاندفعت الجراء تأكل في نهم شديد وأخذت أدعو لتلك العائلة الجميلة أن يبنى الله لهم بيتاً رائعاً في الجنة.

(٥٩)

بعد يومين اتصلت بـ مدام جميلة كي أشكرهم مرة ثانية على بناء بيت آمن لقمر ولأولادها، قبل أن أكمل شكري قالت لى:

- يا فرحة ما تمت.. جاءني اليوم بواب العمارة الي جنبنا وقال لى إن فيه سكان بالدور الثاني والثالث طلبوا منه هدم بيت قمر وطردها هي وأولادها وكمان هيعملوا محضر لرؤوف في القسم.

فانزعجت كثيراً وقلت لها: «نروح لهم أنا وانتى مع بعض.

فقلت: «جوزي قال ماتروحيش».

فرددت عليها قائلة: «أنا حروح لهم لوحدي».

سألت عن بواب تلك العمارة واستفسرت منه عن رقم الشقة التي يريد أصحابها هدم بيت الكلاب، فأخبرني عن رقم الشقة. سعدت وضغطت على الجرس ففتح لى رجل فى حوالى السبعين. قلت له:

- حضرتك عايز تهد بيت الكلاب؟

- أيوه.

- بس دي كلاب بترضع وبتيجى كلاب شرسة تهجم عليهم هم وأمهم بالليل.. يعنى ممكن كلهم يتقطعوا حتت.

وانا مالي.. طظ فيهم

- يعنى مش عايز تعمل خير علشان ربنا يكرمك؟

صمت .

- طيب ممكن تديني مهلة شهر لغاية ما أشوف حل للمشكلة ؟

صمت .

بعد بضعة أيام اتصلت بي مدام جميلة وأخبرتني أنها رأت رجلين بجوار عشة قمر فنزلت مسرعة وسألتهما عما يريدان، فأخبرها أحدهما أنه جاء بالنيابة عن سكان العمارة لكي يهدم هذه الكومة.. وأشار إلى عشة قمر. وسألته إذا كنت أعرف أحداً عنده فيلا أو عذبة أو شيء من هذا القبيل، فأجبتها بالنفي. وتملكني اليأس، لكنني على الفور فكرت في منور عمارتنا. أيقظت عمر لكي نتحرك سريعاً وننقل قمر وأولادها إليه قبل أن يأتي معول الهدم، وأخبرت البواب وزوجته بما أنوى فعله. وعدتهما بأنني سأعطيها مالا إذا قاما بتنظيف المنور يومياً، وبأنني سأشترى الفينيك لتجنب أي رائحة قد تؤذي الجيران. ثم بدأت أنا وعمر في نقل الجراء، وما أن وضعناهم في المنور حتى انتابتهم حالة رعب وأخذوا يصوصون واندفعوا إلى أركان المنور يدفنون رؤوسهم وأجسادهم الصغيرة فيها، وكانت قمر تسير خلفنا أنا وعمر وهي مرعوبة وتصوصو هي الأخرى وكأنها تسألنا: إلى أين تأخذان أطفالاً؟ ووصلت معنا إلى باب المنور ووقفت خارج الباب تنتظر إلي أطفالها كلهم في الداخل وتبكي. لكنها في النهاية - وبعد تردد - دخلت، فاندفعوا كلهم إلى حضنها وأخذت تبحث عن مكان تدخل فيه هي وأطفالها فرأت في الحائط فتحة كبيرة نوعاً ما فدخلت فيها وتبعها أطفالها. وبعد وقت قليل جاءت مدام جميلة لكي تطعم قمر وأولادها.

وقسمنا مواعيد إطعامهم: في الساعة صباحاً لبن وسيرلاك، وأطعم قمر أرز بشوربة خضار وما يسمى «بالعكش».. ثم تأتي هي لإطعامهم بعد ذلك مرتين مرة في الواحدة ظهراً ومرة أخرى في الساعة مساءً.. وحين دخلنا المنور خرجت لنا الجراء ثم خرجت قمر.. أثار حناني جرو لونه أبيض في أسود وأردت أن أهجم عليه وأغرقه في جحيم من القبل، وما أن اقتربت منه حتى هرب ودخل في تلك الحفرة التي في الحائط.. ثم اضطررت للعودة للخلف لكي يخرج ويأكل، وكلما هممت بالهجوم عليه تقول لي مدام جميلة: «علشان خاطر ربنا سيبيه يأكل» . فأتراجع، وفي إحدى المرات وبعد أن اطمأن أنني بعيدة خرج لياكل، اقتربت ببطء ووقفت أمام تلك الفتحة وسددتها بجسدي، فنظر هو إليها وإلى فعرف أنه في المصيدة، فهجمت عليه وحملته وحضنته وأخذت أقبله مائة قبلة في الدقيقة وأربت على رأسه الصغيرة الناعمة، فقال لي بمنتهى الشجاعة: حرام عليكى.. ده مش حب.. ده انتي بتاكليني .. عمرك ما شفتي كلب زيي؟

فرددت عليه: أيوه ح اكلك لأنك صغنن وكميل..

وهجمت عليه

قبلات

وأحضان..

فاطمأن لي وأخذ يلحق ذقني وأنا مستمرة في التقبيل.

(٦١)

هذه اللحظات السعيدة لم تدم طويلاً، ففي مساء أحد الأيام سمعت نباح الجراء آتياً من البدروم، وسمعه أيضاً زوجي وقال لي: إن هذا الصوت يؤذى الجيران الذين يسكنون في الأدوار الأرضية، وأنهم سيأتون شاكين لي، فقلت له: إذا ما جاء الجيران سأخرج لهم أنا بصفتي أم هذه الكلاب.. ثم عاتبته: لأنك أنت مش أبوهم.. لكنه قال غاضباً: أنا راجل البيت، وأخذنا نتشاجر.. فقررت الاتصال بمدام جميلة لتحضر طعامهم مبكراً فرمما كانوا ينبحون جوعاً.. وبالفعل جاءت وأكلوا وشربوا لكنني ظللت خائفة من أن يجوعوا في منتصف الليل ويعود النباح.

(٦٢)

في صباح أحد الأيام، عندما كان الأستاذ رؤوف يصلح سيارته القديمة، ظهرت سيارة رمادية نزل منها رجل طويل يحمل حقيبة سوداء، سار ناحية الحديقة المجاورة وأخرج كاميرا وصور عشة قمر ثم خرج مسرعاً، فاستنتج الأستاذ رؤوف أن أحد السكان شكاه إلى البلدية بحجة أنه بنى عشة للكلاب تحدث قذارة بالمكان، وسكان تلك العمارة المفروض أنهم

يريدون بناء حديقة - هم الذين لم يفكروا في ذلك طيلة  
عشرين عاما - الأمر الذي جعله يقوم بهدم العشة حتى  
يمحو أثر «التعدي المزعوم».

(٦٣)

عرفت الآن سر الصرخات التي كنت أسمعها ليلاً قبل أن  
تموت ببلبل، وسر العضات والجروح العميقة التي كنت أراها  
على جسدها العجوز. كانت تستميت في الدفاع عن قمر  
وعن أحفادها. وعلى الرغم من كراهيتي لها في بعض الأحيان  
أشعر نحوها الآن بامتنان تأخر مواعده. فقد كانت تندفع  
وسط الكلاب الشرسة وينالها ما ينالها من أذى لكي تبعدهم  
عن قمر وأولادها، وهي واحدة وهم كثيرون، لكن شاء الله  
لها أن تموت من الشيخوخة، وربما ماتت مسمومة، أو من  
الصيد الذي سرى في جسدها بعد أن التهم عينها اليمنى  
تماما ولم يتبق منها سوى خلفية لحم أحمر.

أنا الآن أفقدها، وأفقد كل الموق، كل الوجوه التي غابت  
ولن تعود.

(٦٤)

ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث للون الأخضر؟

رأيت مجزرة الأشجار، الحديقة المجاورة لمنزل مدام جميلة، والتي كانت فيها عشة قمر وكانت مليئة بأشجار كثيرة، رأيتها كومة خشب وأوراق شجر يحملها شاب ويلقى بها بعيداً. وبقيت مجموعة من الجذوع المبتورة كبقايا جسد بترت أطرافه وبقى وحده وسط الركاب. لحسن الحظ تركوا شجرة واحدة كانت صديقتي، كنت أستمتع بصوت زقزقة العصفير فيها، كأنني أستمتع إلى «الفصول الأربعة» لفيفالدي، ألم يسمع هؤلاء الجزائريون أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان يقول لجنوده قبل المعارك: «لا تردموا بئراً ولا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا راهباً في صومعته»؟

نظرت إلى كومة الأشجار التي قُتلت ثم نظرت إلى السماء وشكوت حزني وهمى إلى الله.

بعد أن أطعمنا قمر وأولادها أنا وجارتي الجميلة مدام جميلة، أغلقنا عليهم الباب. وفجأة سمعت صوت امرأة تتكلم بحدة، فأخذت أتلفت حولي عدة مرات بحثاً عن مصدر الصوت، إلى أن رأيت جارتنا التي تسكن في الدور الأول تصرخ في وتقول لي إن الحاج زوجها متضايق جداً من الكلاب، ولا ينام في الليل إلا قليلاً، وأنها ستأتني بمفتاح المنور من البواب وستطردهم جميعاً وأخذت تصرخ وتتوعد. أردت أن أقول لها: إن كل إنسان يعمل بأصله، لكن مدام جميلة غمزت لي حتى لا أرد عليها.

وأثناء عودتي مع مدام جميلة إلى منزلها سمعت صوتا خلفي ينادى عليّ: يا أم عمر.. يا أم عمر.. فنظرت ورأيت الشاب الذي يعمل في مكتب بالدور الأرضي بعمارتنا. توقفت فقال: أنا بلغت الحاج فقال إنه مش هيسكت على موضوع الكلاب ده، فتضايقت وأخذت أسأل مدام جميلة ماذا سنفعل الآن؟ فأجابتنى بمنتهى الإيمان والثقة بالله وقالت: ربنا هيحلها. لكنني كنت متشائمة، لأن كل أمر في حياتي تفاءلت فيه، يحدث عكسه فأصبحت أخاف أن أتفاءل، فمن الذي يستطيع أن يعتنى بثمانية كلاب وأهمهم؟ ثم نظرت إلى مدام جميلة وكأنها قرأت ما الذي يدور في عقلي، وأصرت: ربنا هيحلها.

(٦٦)

كان لابد من التحرك سريعاً للبحث عن مأوى لقمم وأطفالها، فاتصلت برئيس جمعية الرفق بالحيوان الدكتور أحمد الشربيني، إلا أنه اعتذر بأن المأوى الذي عنده لعلاج الحيوانات فقط وليس للإقامة الدائمة. ثم نصحتني بالاتصال بالأستاذة منى خليل وأعطاني رقم تليفونها، لأنها تمتلك مأوى كبيراً للكلاب، فاتصلت بها وأحسست أنها سيدة حنون وفاضلة، وعندما أخبرتها بالمشكلة قالت لي: تعال الأول شو في المكان وأنا تحت أمرك.

(٦٧)

ذهبت أنا ومدام جميلة إلى ذلك المأوى، وكان في منطقة شبرامنت بجوار الأهرام. المكان عبارة عن مساحة كبيرة من الأرض بها كل أنواع الكلاب، الكلاب الصغيرة مثل الجريفون واللولو في أقفاص كبيرة وحدها، والباقي كله خارج هذه الأقفاص، ومعظمهم من النوع البلدي والولف، وكثير منهم به عاهة، كأن يكون بيد واحدة أو ساق واحدة. والتف حولنا الكلاب فحفت أنا ومدام جميلة، وأمست كل منا يد الأخرى، لكن الحارس قال: ماتخافوش.. مش هيعملوا لكم حاجة، وهناك أيضاً - وللمرة الأولى - أرى كلباً عجوزاً قبيحاً في أخريات أيامه. قلت سبحان الله، حتى ملامح وجوه الكلاب

تتغير مع الشيخوخة. ونظرنا نظرة سريعة على المكان ثم شكرنا الحارس وانصرفنا.

أخبرتني مدام جميلة أن كل الكلاب ستلتف حول قمر للزواج منها، وممكن أن يهجموا عليها هي وأولادها، فاستبعدنا هذا المأوى، ثم أخذنا نتحدث عن الأستاذة منى خليل وكيف أنها لو كانت تريد أن تصبح مليونيرة لطردت كل هذه الكلاب وباعت الأرض التي ستدر عليها ملايين الجنيهات بسبب روعة موقع ذلك الملجأ، لكنها لم تفعل، بل تتحمل تكلفة إطعامهم وشربهم وعلاجهم ابتغاء وجه الله دون انتظار مقابل أو تقدير أو حتى كلمة شكر من أحد.

### (٦٨)

في ظلمة الليل الذي أعيش فيه جاءني النجدة من الله، لأن من يظن بأكرم الأكرمين الخير سيجده إن شاء الله. فقد اتصلت بي مدام جميلة وأخبرتني أنهم وجدوا مكانا لقمر، وقالت إن ابنتها الدكتورة نبيلة أثناء وجودها في المستشفى الذي تعمل فيه، سألت أحد زملائها الأطباء ماتعرفش مكان يأخذ كلبة بلدي وأولادها الثمانية؟ فقال: ده لسه أبونا «ستافروس» كان بيتكلم معايا في هذا الموضوع، وأنهم محتاجين للكلاب في الدير الموجود بوادي النطرون، وأكملت جميلة البشرى: فذهبت على الفور إلى أبونا الذي فرح بقمر وأولادها حتى قبل أن يراهم، لكنه قال لي: بشرط واحد..

إنكم مش ح تشوفوهم مرة ثانية، لأنهم هيكونوا عند  
الرهبان في قلاياتهم «صوامعهم» داخل الدير.

كان شرطاً قاسياً، لكننا وجدنا في هذا الحل نجدة إلهية.  
فاتفقت الدكتورة نبيلة مع أبونا ستافروس على اليوم  
والساعة التي ستتأق فيها السيارة.

### (٦٩)

جاء يوم الفراق، حضرت المظروف الذى كتبت فيه تاريخ  
ميلاد قمر هي وأولادها وشهادات التطعيم.

نزلت إلى المنور وقمت بإغلاق الفتحة الموجودة في الحائط  
- التي من الممكن أن تختبئ فيها قمر هي وأولادها من  
الغرباء القادمين - بأكياس كبيرة ممتلئة بزجاجات المياه  
الغازية كانت بجوار الحائط. ثم جاء الأستاذ رؤوف وحنان  
التي حضنت قمر وأخذت تربت عليها وربطت عنقها بطوق  
بنى جميل، فزادت قمر جمالاً على جمال، وأصبحت أشبه  
بكلبة لابرادور بيضاء، ثم قامت بربط السلسلة الطويلة من  
رقبتها وربطت طرفها الآخر في سور السيارة النقل الصغيرة  
التي ستأخذهم إلى الدير، والتي كانت ممتلئة بالزيت  
والمكرونة ومواد غذائية أخرى للرهبان والقساوسة بالدير،  
ثم دخل السائق واثنان من مرافقيه المنور فخافت قمر  
وجرت مسرعة وحاولت الدخول إلى تلك الفتحة لكنها لم  
تستطع، وأخذ كل منا يحمل طفلاً من أطفالها إلى السيارة

وكانوا جميعاً في حالة رعب، لدرجة أن بعضهم تبول علي يد من يحمله. ثم جاءت لحظة إخراج قمر فحملتها مدام جميلة وحنان وأنا ووضعتها في السيارة من الخلف، وقامت حنان بالتأكد من قوة ربط السلسلة التي في رقبتها بإحدى فتحات الصندوق الخلفي للسيارة حتى لا تهرب قمر، التي ما إن جلست حتى تجمع حولها أطفالها وهم في حالة رعب، وأخذت قمر تنظر إلينا وكأنها تسألنا ما الذي يحدث لنا؟ وإلى أين يأخذوننا؟ لماذا تبعدوننا عنكم؟ وأرادت حنان أن تجلس بجوارها في السيارة من الخلف لكن والدها رفض ثم أخبرها السائق أنها لو فعلت ذلك فسيأخذون مخالفة للسيارة. ثم قام برفع سور مؤخرة السيارة وأغلقه بعمود من الحديد من الجانبين وذهب خلفهم الأستاذ رؤوف وحنان في سيارتهم، وأخذت مدام جميلة تدعو لهم وتشير بيدها إلى السيارة وترسم صلبانا في الهواء. أما أنا فقد انفجرت في بكاء مريـر.

\* مريم البنا

\* نائب رئيس تحرير الأهرام

صدر لها:

- «تسمح كتفك من فضلك» - مكتبة مدبولي

- «رائحة الوجه القديم» - دار شرقيات